



وداعاً يا حبيبي

شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

١ ـ قلب جريح ..

جلست (هيام) فى الردهة الواسعة ، التى تتوسط الڤيلا ، تتطلع إلى الرجل الذى يهبط فى درجات السلم ، من الطابق العلوى ، بقامته المديدة ، وشعره الناعم ، الذى اختلط بياضه بسواده ، وابتسامته الودود ، التى قلما تفارق شفتيه ، وهو يتطلع بدوره إليها ، فسألته فى لهفة :

ـ كيف حاله الآن يا دكتور ؟

اتسعت ابتسامته ، وثبّت منظاره الطبى فوق أنفه ، وهو يجيب :

ـ عظيم .. لقد استرد خالك صحته تماماً ، ولم يعد يحتاج إلى معاودتى له .

ارتسم الارتياح على وجهها ، ودعته للجلوس ، وهى تقول :

ـ من المستحيل أن تنقطع عن زيارتنا يا دكتور (رفيق) ، فأنت صديق للعائلة ، ولست مجرّد طبيبها .

تطلّع إلى عينيها ، وهو يقول :

– أنت تعلمين أننى كنت أتمنى أن أصبح أكثر من ذلك ، ولكنك رفضت منحى الفرصة .

صمتت برهة ، وأزاحت خصلة من شعرها إلى الوراء ، قبل أن تقول :

– دكتور (رفيق) .. لقد حسمنا هذا الأمر من قبل .

رفيـق :

– ولكننى لم أفقـد الأمل بعد .. أنت تعلمـين يا (هيام) أن مشاعرى نحوك كما هى ، وأننى مازلت أتمنى أن أجد صدى لها فى قلبك يوماً .. مهما تأخَّر ذلك اليوم .

هيـام :

– أنت رجل تفخـر أى امرأة بالزواج منـه يا دكتور (رفيق) ، بما لك من سمعة طيبة وأخـلاق حميدة ، يشهد لها الجميع ، وقلب كبير عامر بالحب والخير ، ولكن المشكلة تكمن فىَّ أنا .

غمغم فى رجاء :

– لو منحتنى الفرصة فقط ، فسأثبت لك ..

استوقفته قائلة :

– لقد أغلقت قلبى أمام الحب والزواج منـذ زمن .

تناهى إلى مسامعهما فى تلك اللحظة ، وقع أقـدام الخادم ، وهو يهبط من الطابق الثانى ، فهمس(رفيق):

– لن أناقشك فى هذا الأمر مرة أخرى يا(هيام)، ولكن إذا ما تغيَّر رأيك ، وزايلتك عقدتك السابقة ، فستجدينى فى انتظارك دوماً .

وصافحها فى احترام واعتزاز ، وانصرف دون أن يضيف حرفاً ، وتابعته هى ببصرها ، من خلف زجاج النافذة ، وهو يستقل سيارته ، وينطلق بها إلى مستشفاه ، وقفزت بها ذاكرتها إلى الوراء ..

تذكَّرت زوجها السابق (سعيد) ، والحب الكبير الذى ربط بين قلبيهما ، وهى بعد طالبة جامعية ..

تذكَّرت كيف كادت تطير فرحاً ، يوم زفافها

إليه ، وقد بدا لها فى تلك الأيام ، الصورة المثلى للزوج المنشود ، حلم كل فتاة ..

ثم سافرت معه إلى السعودية ..

وفجأة انقلب كل شىء ..

تحول (سعيد) إلى إنسان آخر .. مخلوق قاسٍ جشع .. مادى لا يحترم العواطف أو المشاعر ، كل هدفه هو أن يجمع أكبر قدر من المال ، فى أقصر وقت ، وأسرع وسيلة ، وكلما حاولت أن تقترب منه، أو تفهمه ، أبعدها عنه فى قسوة وخشونة ..

أصبح حبهما مجرد ذكرى ..

ولكنها أبداً لم تيئس ، على الرغم من نفورها من التحول الذى طرأ عليه ..

تحملت الكثير ، والكثير من أجل أن تعيد إليه آدميته المفقودة ، ولكنها فشلت دوماً ..

ومن الغريب أنها لم تتقاعس يوماً عن التضحية من أجله ، على الرغم من أنه لم يكن أبداً بالرجل الذى يستحق التضحية ، فلقد قاطعت أسرتها من أجله ،

وحرمت أباها ، الذى مات غاضباً ، رافضاً لذلك الزواج ، وضحت بوظيفة ممتازة ؛ لتسافر معه ، وبرغبتها فى الإنجاب ، حتى يقرر هو أن الوقت يناسب ذلك ..

ثم كافأها على كل ذلك بورقة صغيرة ، أرسلها إليها يوماً ، ليعلنها أنه قد طلّقها ، وتزوّج صديقة لها .. بل أعز صديقاتها ..

ويوم استقلّت القطار ، لتقيم عند خالها ، بعد أن فقدت زوجها وأسرتها ، وكل شىء ، كانت قد ودّعت تلك المشاعر التى عرفتها من قبل .. مشاعر الحب والتضحية ، بعد أن علمتها التجربة المريرة أن الحب هو خدعة الزواج ، وأن الزواج هو نهاية الحب، وبداية العذاب .. وكانت تعلم أن حكمها ظالم ، لايمكن تعميمه ، إلا أنها أرادت أن ترسخ ذلك المبدأ فى حياتها، لتمنع قلبها من الخفقان لأى حب جديد ، وأى يد تتقدم إليه ..

لقد بلغت الثامنة والثلاثين من عمرها ، وأوقفت

حياتها لخدمة خالها (إبراهيم) ، ذلك الرجل الطيب ، الذى يعاملها بكل حب وحنان ، كأنها ابنته ، بل إنه يقضى معها من الوقت ما يزيد عما يقضيه مع ابنته ، التى تعيش - بصورة شبه دائمة - مع أمها السورية فى (دمشق) ، حيث تتلقى تعليمها ، وتزور والدها فى إجازاتها الصيفية فحسب ، بعد أن تم الطلاق بين والديها ، وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ..

كل هذه الأفكار دارت فى رأس (هيام) ، وهى تتابع سيارة الدكتور (رفيق) ببصرها ، حتى اختفت من أمام عينيها ، فغمغمت فى مرارة :

- لن يتحقَّق أملك أبداً يا دكتور (رفيق) .. ليتك تعى ذلك .

فوجئت بصوت خالها (إبراهيم) يأتى من خلفها خافتاً ، وهو يقول :

- ممتاز هو الدكتور (رفيق) .

تحوَّلت إليه مغمغمة فى ارتباك :

- خالى !! .. حمداً لله على سلامتك ، لقد

طمأننى الدكتور (رفيق) على صحتك ..

تطلَّع إليها خالها بعينين حانيتين ، وهو يقول :

- ليته يطمئننى عليك أيضاً يا (هيام) .

ضحكت ، قائلة :

- لماذا ؟ .. أقال إننى مصابة بمرض ما ؟

ابتسم قائلا :

- لاداعى للمراوغة ، فأنت تفهميننى جيِّداً ، وتعلمين أن (رفيق) مازال يحبك ، ويصبو إلى أن تصبحى زوجته ، و (رفيق) نوع نادر من الرجال ، يعرف جيِّداً كيف يصون المرأة التى يقترن بها .

تنهدت قائلة :

- لقد قلت شيئاً شبيهاً يا خالى ، يوم عرفتك (سعيد) .. كنت الوحيد الذى وافق على زواجى منه ، برغم اعتراض باقى الأسرة ، وليتك وافقتهم ، فربما كنت أنقذتنى مما جرى ، فأنت تعلم أننى أحترم رأيك ، وأقدِّره دون الآخرين .

ارتسمت على وجهه معالم الشعور بالذنب ، وهو يقول :

ـ لقد أخطأت فى حكمى عليه بالفعل ، وربما دفعنى إلى ذلك تعلُّقك الشديد به ، فأنت تعلمين كم أحبك ، وكم كنت أرفض حرمانك من إنسان تعلَّق به قلبك إلى حدٍّ كبير .

هتفت فى انفعال :

ـ كان ينبغى أن تعترض ، فقد كنت أنا مجرَّد حمقاء قلباً وقالباً .

حاول أن يهدئ من روعها ، قائلا :

ـ وما أدرانا أنه كان سينقلب على هذا النحو .. وعموماً (رفيق) يختلف تماماً ، وأنا أعرفه منذ سنوات ، فهو رجل عاقل متّزن ، وقف حياته لعمله النبيل ، حتى أهمل نفسه تماماً ، فبلغ الخامسة والأربعين دون زواج .. وصدقينى يابنيتى .. إنه لا يشبه (سعيد) أبداً .. إنه نعم الزوج .

أجابته فى عناد وإباء :

ـ هكذا يبدون جميعاً قبل الزواج ، أما بعده ، فهم يكشفون عن ذلك الجانب البغيض منهم ، الذى يعجزون عن إخفائه ، بين جدران شقة الزوجية .

ابتسم فى إشفاق ، مغمغماً :

وما الذى رأيته خلف تلك الجدران ؟

هيام :

ـ لست أنا من تحكم على ذلك يا خالى ، بل زوجتك السابقة ، التى طلقتها بعد سبع سنوات من زواج كان مضرب الأمثال فى السعادة والهناء .

نكأت كلماتها جرحاً فى أعماقه ، فأطرق بوجهه أرضاً فى حزن ، فغمغمت فى ارتباك وندم :

ـ معذرة .. لم أكن أقصد ..

حاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ لا تعتذرى يا بنيَّتى .. لم يحن الوقت بعد ، لتعلمى سر انفصالنا ، قبل أن تصدرى حكمك ، ولكن ثقى أننى لم أتجنَّ على هذه المرأة أبداً ، بل هى التى ..

بتر عبارته بغتة ، ولاذ بالصمت ، فجثت (هيام) على ركبتيها ، إلى جوار مقعده ، وقبّلت يده ، وهى تقــول :

– خالى .. لا ريب أننى قد أخطأت فى الكثير ، ولكننى أستحلفك بالله ألا تناقش هذا الأمر معى بعد الآن ، ودعنى أحيا إلى جوارك ، حيث أجد الراحة والسعادة ، أما الحب والزواج فأنا أشعر نحوهما بالخوف والكراهية ، ولقد حذفتهما من حياتى إلى الأبد .

مسح على شعرها فى حنان ، وهو يقول :

– لن نناقش هذا الأمر بعد الآن يا بنيتى ، ما دامت هـذه هى رغبتك ، وسأترك الحكم لقلبك مستقبلا .

غمغمت فى حزن :

– نعم .. اترك الحكم لقلبى .. قلبى الذى وأدته بين ضلوعى ، إلى الأبد ..

* * *

٢ ـ عودة الحفيد ..

قدمت (هيام) لخالها قدحاً من الشاى ، وهى تقــول :

– لقد تأخر جدى (حسن) هذه الليلة ، ألن يمضى أمسيته معنا ؟

ارتشف (إبراهيم) بعض الشاى ، وهو يقول :

– كلاً .. إنه مشغول هذه الليلة ، حيث يستعد لاستقبال حفيده العائد من (أمريكا) .

حاولت (هيام) عبثاً أن تتذكر شيئاً عن حفيد جارهم ، ثم لم تلبث أن تساءلت :

– هل تقصد ذلك الصبى الصغير ، الذى كان يأتى إلى منزلنا ، ليلعب مع (وفاء) ؟

ابتسم خالها ، قائلا :

– إنه لم يعد صبيًّا صغيراً ، إنه الآن شاب وسيم ، فى الثالثة والعشرين من عمره ، يحمل درجة الماجستير فى الاقتصاد، فى جامعة (كاليفورنيا) ، وهو يشبه أباه تماماً .. هل تذكرين كيف فقد والديه ؟ .

هيـــام :

ـ أظن أن طائرتهما قد سقطت فى المحيط ، فى أثناء عودتهما من الولايات المتحدة !

ارتسم الحزن على وجه خالها ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح .. كان ذلك منذ ست سنـوات ، والمؤلم أن ابنهما يحمل نفسه مسئولية موتهما ، فلقـد رفض العودة إلى (الفيوم) ، خلال العطلة الدراسية ، وطلب من والديه قضاء الإجازة معه هناك ، فسافرا إليه ، ولقيا مصرعهما فى حادث الطائرة ، فى أثناء عودتهما ، مما سبب لابنهما صدمة عنيفة ، ولقد بذل جده مجهودات عنيفة ، ليقنعه بالعودة إلى هنا ، وكان يرفض دوماً ، ولكن يبدو أن جده قد نجح فى إقناعه أخيراً ، مادام سيصل غداً إلى (الفيوم) .

شردت (هيام) قليلا ، وكأنما تبحث فى ذاكرتها عن اسم الشاب ، قبل أن تقول :

ـ نعم .. إن اسمه (عصام) .. (عصام عبدالستار) .. لقـد تذكرته تماماً .. لقـد كان دوماً شاباً مرحاً ..

كم أتمنى أن يكون قد تخلّص من عقـدته ..

ابراهيم :

ـ سمعت أن جده سيتنازل له عن كل ثروته : المنزل والمزرعة ، ومصنع الأعلاف ، فهو حفيـده الوحيد ، والرجل يريد تجنيبه مشاكل الإرث مستقبلا ، وإغراءه بالبقاء فى (الفيوم) ، فالحاج (حسن) يحتاج إلى من يؤنس وحدته ، فى سنواته القليلة الباقية .

هيـام :

ـ لا ريب أننا سنلتقى بـ (عصام) كثيراً ، ما دام سيقيم هنا .

ـ بالطبع .. لقد كنت أحب هذا الفتى كثيراً ، وأستمتع بمجالسته ، ولكننى لم أره منذ كان فى الخامسة عشرة من عمره .. إن رؤياه ستعيد إلىّ تلك الذكريات الحلوة ، التى كانت تجمعه بابنتى (وفاء) .. كم أشتاق إليها .. لقد مر عامان دون أن تأتى لزيارتى .. ألا تشتاق إلى والدها ، الذى يحبها من أعماق قلبه ؟

ومن أعمق أعماقه ، انطلقت زفرة حارة ..

* * *

استقبلت (هيام) الجد (حسن) ، وهى تهتف فى سعادة حقيقية :

ـ جدّى (حسن) .. كم تسعدنى رؤيتك ، لقد تغيبت عنا كثيراً .

ابتسم الكهل ، وهو يقول فى وُدّ :

ـ إنه أسبوع واحد فحسب ، ثم لماذا لم تأتى لرؤية جدك العجوز ، مادام قد أوحشك إلى هذا الحد؟

ضحكت قائلة :

ـ كنت أعلم أنك مشغول بغيرى ، وأن سعادتك بعودة حفيدك لن تفسح فى قلبك مكاناً لسواه ، حتى أنا .

ـ أهذا معقول ؟ .. أنت تعلمين كم أحبك .. هل خالك هنا ؟

ـ نعم .. فى حجرته .

ـ دعينى أفاجئه إذن ، واعتنى أنت بالضيف .

ـ أى ضيف ؟

تركها دون أن يجيب سؤالها ، وأسرع يرتقى السلم إلى الطابق العلوى ، كأنما كان طفلا شقيًّا ، يسعى لقليل من المرح ، على حين فوجئت (هيام) أمامها بشاب ممشوق القوام ، وسيم الملامح ، على الرغم من شحوبه ، وذبول عينيه ، فتسمّرت فى مكانها ، ولم تدر ماذا تقول ، حتى غمغم هو فى هدوء وجمود :

ـ ألن تدعينى للدخول ؟

هتفت فى حماس مجامل :

ـ بالطبع .. تفضّل .

أفسحت له الطريق ، فدلف إلى الردهة الواسعة ، وراح يتأمل محتوياتها فى جمود ، حتى توقف أمام صورة (وفاء) ، وقال :

ـ إنها (وفاء) .. أليس كذلك ؟

ـ بلى ..

ـ لم تتغير كثيراً .. أشياء كثيرة لم تتغير هنا .. إننا فى (مصر) لا نميل إلى التغيير ، على عكس القوم

فى الخارج ، فهم يتغيرون بسرعة قصوى ، كل يوم هناك جديد ، حتى المشاعر يغيرونها بسرعة ، فأحزانهم عاقلة قصيرة ، على حين أحزاننا نحن ممتدة طويلة .

أدهشها ذلك الحديث ، الذى لم تدرك منه شيئاً ، فغمغمت فى مرح مصطنع ، محاولة التغلب على ذلك الحرج ، الذى جمعها به :

– أنت (عصام) .. أليس كذلك ؟

جلس فى هدوء ، وألقى نظرة طويلة على السقف ، قبل أن يجيب :

– وأنت (هيام) .. الفتاة التى كانت تؤنبنى دوماً ؛ لأننى أسرق قطع الشيكولاته واللبان من حقيبتها.

ابتسمت (هيام) ، قائلة :

– فى الماضى كنت تسمينى (أبلة هيام) ، وكنت دوماً مبتسماً ، على عكس الآن .

أجابها فى جمود :

– فى الماضى كنت صبيًّا فى العاشرة ، وكنت شابة مكتملة الأنوثة .

– مهما مرَّ الزمن ، ستظل تفصلنى عنك خمسة عشر عاماً ، تدعوك لمخاطبتى بنفس اللقب .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

– ولكنك تبدين كما تركتك آخر مرة .. نفس الجمال والأنوثة ، وكأنما خشى الزمن أن يقترب منك . ألم أقل لك إن الأشياء لا تتبدل هنا فى سهولة .

– مجاملة طيبة منك .

– لست أجاملك .. إنها الحقيقة .

– إذن فالصبى الشقى ، الذى كان يكتفى بسرقة الحلوى من حقيبتى ، ينوى أن يقتحم اليوم مجالا جديداً من مجالات الشقاوة .

– أتتصورين أننى أغازلك ؟! .. عجباً !! .. لم لا تستقبلون الأمور فى بساطة ؟ لم تصرُّون على تحميل العبارات معانى أخرى مستترة ؟ .. لقد رأيتك حقًّا كما تركتك .. جميلة شابة ، والحق يقال : لقد ازددت نضجاً وجمالا ، ولقد كان من الطبيعى أن أخبرك بذلك دون أن أقصد مجاملتك أو مغازلتك .

– حسناً .. ما دمت صريحاً على هذا النحو ، فلمَ لمْ تجب عن الجزء الآخر من سؤالى .

– أى سؤال ؟

– أين اختفت إشراقتك وابتسامتك ؟

نهض من مقعده ، وسار نحو النافذة ، وأولاها ظهره ، وهو يتطلع منها فى صمت ، قبل أن يجيب :

– ضاعت .. ضاعت مع سنوات الغربة والوحدة ، مع مرارة الفراق وقسوة اليتم ، مع أب وأم قدما لى كل الحب والرعاية ، وكافأتهما بميتة مروّعة ، مع فتاة لا تستحق ، تغلبت رغبتى فى البقاء إلى جوارها ، على لهفتى لرؤية والدىَّ ، فلقيا حتفهما ثمناً لجحودى .

شعرت بالألم والندم ؛ لأنها ألقت عليه ذلك السؤال ، الذى فجّر أحزانه ، وتضاعف ألمها وندمها ، حينما رأت عَبْرة ساخنة تنسال على وجنته ، فاقتربت منه مغمغمة :

– معذرة .. إننى ..

قاطعها صوت مرح يهتف :

– (عصام) ؟! .. أخيراً جئت إلى منزل عمك (إبراهيم) !

استدار (عصام) مغتصباً ابتسامة ، ومسح دمعته ، وهو يصافح الخال ، قائلا :

– ما كنت لأمتنع عن دعوتك يا عماه .

تعانق الاثنان فى حرارة ، وجلس الجد (حسن) ، فوق مقعد قريب ، وهتف بـ (هيام) :

– أعدى الشاى سريعاً ، وأحضرى لنا طاولة النرد ، فلقد جئت لأثأر من خالك ، فقد هزمنى سابقاً .

أسعدها ذلك المرح ، الذى ساد المكان فجأة ، فهتفت فى ارتياح :

– على الرحب والسعة .. سأحضر كل شىء على الفور ..

وانطلقت تشاركهم مرحهم ..

* * *

٣ ـ القرار الحزين ..

جلست (هيام) أمام نافذة حجرتها شاردة ، وقد انتزعتها أفكارها وخواطرها بعيداً ، حتى أنها لم تشعر بخالها ، الذى طرق الباب فى رفق ، ثم دلف إلى حجرتها ، ووقف يتطلع إليها لحظات فى حزن ، قبل أن ينحنى نحوها ، قائلا فى عطف :

ـ ماذا حدث يا بنيتى ؟ .. ما الذى يدلُّك على هذا النحو ؟

مسحت دمعة سالت على وجنتيها ، وهى تجيب :

ـ لا شىء يا خالى ، لا تقلق نفسك بشأنى .

ـ كيف يا (هيام) ؟ إنك حزينة شاردة هكذا ، منذ ثلاثة أسابيع .. ما الذى أصاب الزهرة المتفتحة ، التى كانت تملأ المنزل بهجةً ومرحاً ؟ ما الذى ملأ عينيها بكل ذلك الحزن والاكتئاب ؟ ما الذى يدعوها إلى الجلوس شاردة حائرة فى حجرتها بالساعات ؟ .. أريحى قلبى يا بنيتى ، وأخبرينى ماذا ألم بك .

أرادت أن تهوّن له الأمر ، إلا أن نبرة حزينة ملأت صوتها ، وهى تقول :

ـ الأمر لا يحتاج منك إلى كل هذا القلق يا خالى ، فكل ما هناك أننى أصبحت أميل إلى الوحدة والتأمل فى الآونة الأخيرة ، فكل إنسان يحتاج إلى بضع ساعات من الوحدة ، يراجع فيها نفسه ، ويعيد تقدير موقفه .

ـ أأنت واثقة من أن الأمر لا يعدو كونه كذلك؟

ـ أؤكِّد لك أنه لا يتجاوز ذلك .

ـ حسناً .. لا تنسَىْ أننا مدعوَّان لتناول طعام العشاء عند الحاج (حسن) .

ارتسم الخوف فى ملامحها ، وأطل من عينيها ، وهى تقول :

ـ ألا يمكنك أن تذهب بدونى ؟

أدهشه موقفها ، فقال فى حيرة :

ـ ألم أقل لك إنه هناك شىء لا أفهمه ؟! إنها المرة الثانية ، التى ترفضين فيها الذهاب إلى الحاج (حسن) ، على الرغم من أنك كنت تقضين هناك معظم وقتك ،

فماذا حدث ؟ .. أللأمر علاقة بعودة (عصام) ؟

اضطربت لدى سماعها الاسم ، وهزّت رأسها نفياً فى قوة ، وهى تقول :

– مطلقاً .. إن (عصام) فى موضع شقيقى الصغير ثم إنه شاب لطيف دمث الخلق .

– ما سرُّ رفضك قبول الدعوة إذن ؟ .. لقد استاء الحاج (حسن) كثيراً ، حينما اعتذرت عن دعوته لك فى المرة السابقة ، وسيحزنه أن ترفضى دعوته هذه المرة أيضاً .

تنهّدت فى استسلام ، وهى تقول :

– حسناً .. سأرافقك هذه الليلة يا خالى .

لم تنه موافقتها حيرته وقلقه ، إلا أنه غمغم فى خفوت :

– فليشملك الله (سبحانه وتعالى) برعايته يابنيتى .

وأغلق الباب خلفه ، على حين غادرت (هيام) مكانها ، ووقفت أمام المرآة ، تتطلّع إلى وجهها الحزين ، وعينيها الشاحبتين ، مغمغمة :

– لماذا لم تخبريه بالحقيقة ؟ .. لماذا كذبت عليه هذه المرة ، وما فعلت هذا يوماً ؟ .. وإلى متى يمكنك إخفاء الحقيقة عنه ؟ .

ارتسم الخوف على وجهها ، وهى تستطرد :

– ولكن كيف ؟ .. كيف يمكننى أن أخبره بطبيعة ذلك الصراع ، الذى أعيشه مع نفسى فى هذه الأيام ؟ .. أأخبره أن (هيام) ، التى آلت على نفسها التصدى لرياح الحب ، قد وقعت فى مهب هذه الرياح ؟ .. أأعترف له بأن مقاومتى تنهار ، منذ التقيت بـ (عصام) ، وتكررت لقاءاتنا وأحاديثنا ، دون أن نشعر بأن هذا الشيء الخفى ، الذى يجمعنى به ، ليس العطف والشفقة كما تصوّرت ، وإنما هو حب يتسلّل داخل مشاعرنا ونفوسنا ! .. أأروى له عن الحرب العاتية ، التى أخوضها ضد نفسى الآن ، وأنا أقاتل ما بين الخوف فى الحب ، أو الاستسلام له ؟! .. وحب مَنْ ؟! .. (عصام) !! .. (عصام) الذى يصغرنى

بخمسة عشر عاماً .. ذلك الصبي الذى كان يخاطبنى فى الماضى بلقب (أبلة هيام) !! ..

لماذا هو بالذات ؟ .. أيعاقبنى القدَر ؛ لأننى تجاهلت قلبي سنوات ، فيرسل لى من يقتحمه ، دون أن تناسبنى ظروفه أبداً .

هزّت رأسها فى إصرار ، وهى تواجه صورتها فى المرآة ، قائلة :

ـ كلاً .. لست بالمرأة الضعيفة ، التى تستسلم لعاطفة طردتها من حياتها ، بمثل هذه السهولة ، ولست بالمراهقة ، التى تقع فى حب شاب لا يناسبها .. هذا مستحيل ، ولن أسمح له بالاستمرار .. لن أسمح أبداً ..

* * *

راقب (عصام) (هيام) فى اهتمام ، بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء ، وبعد أن انهمك الخال والجد فى لعب النرد ، وبدت له مستغرقة فى التفكير ، وهى تبحث عن وسيلة حاسمة لتنفيذ قرارها الحازم ، بالنسبة لعلاقتها بـ (عصام) ، الذى أدهشه تجاهلها له طيلة

الوقت ، وانتهز فرصة توجهها إلى المطبخ ؛ لإعداد الشاى ، فلحق بها ، وقال فى لهجة ، أراد أن يصبغها باللامبالاة :

ـ كنت أراقبك ونحن نتناول الطعام .. إنك لم تأكلى شيئاً تقريباً .

قالت دون أن تلتفت إليه ، وهى تتظاهر بالانهماك فى إعداد الشاى :

ـ لم تكن بى شهية لتناول الطعام .. أليس من الأفضل أن تجلس مع الرجال ؟

غمغم بانفعال مكبوت :

ـ أصار وجودى يزعجك إلى هذا الحد ؟

غمغمت فى توتر :

ـ ملاحقتك لى دوماً ستثير تساؤلهما .

انفجر انفعاله المكبوت ، وهو يقول فى حدّة :

ـ دعك من حِجَجِك السخيفة .. إنك تتعمدين

الابتعاد عنى طيلة الوقت .. أذهب إلى ڤيلا خالك ، فيقولون إنك غير موجودة ، وأنا أعلم أنك تتحاشين مقابلتى .

أجابته ، محاولة أن تشيع فى صوتها نبرة واثقة :

– كنت أحتاج إلى بعض الوقت ، لأراجع نفسى .

هتف فى دهشة :

– لماذا ؟

تحولت إليه ، قائلة فى ثبات :

– اسمع يا (عصام) ، فلنطرح كل السخافات خلف ظهورنا ، ولنتطلّع إلى الأمور بواقعية ومنطقية وإدراك .

– أية أمور تلك ؟

– لا تتظاهر بعدم الفهم .. إننى أعترف بما حدث بيننا من تقارب ، ولكن ذلك كان بسبب الظروف النفسية ، التى نعانيها معاً ، ولكن من المستحيل أن نطلق على ذلك التقارب اسم (الحب) ،

فهناك عشرات الأشياء ، التى تحول بيننا وبين ذلك ، وبدلاً من أن نتمادى فى تلك الأكذوبة ، دعنا نعتبر تقاربنا شبيهاً بما حدث بين أخ وأخته ، ولنقتلع أية نزوة عاطفية عابرة من أعماقنا .

ضاقت عيناه ، وبدا وكأن الألم يعتصره ، وهو يقول فى صوت مبحوح :

– أكذوبة ؟! .. أتطلقين على ما بيننا لفظ (أكذوبة) .. ذلك الحب الكبير ، الذى داوى جراحى وأعاد لى الثقة فى الحياة ، والأمل فى المستقبل ، وأضاء العالم فى وجهى ، تطلقين عليه اسم النزوة العاطفية العابرة ؟! .. أى ذنب اقترفته ، لتحطمى قلبى على هذا النحو ؟ .. أهو أننى أحببتك بكل صدق وإخلاص وتصوَّرت أننى سأجد معك الحب الحقيقى ..

أتعسها كل ذلك الحزن المرتسم فى ملامحه ، وودَّت لو أنها تخلت عن قرارها ، وهتفت تعترف بأنها كاذبة ، وبأنها تبادله نفس الحب والإخلاص ، ولكن

الجزء الرافض فى أعماقها راح يقاوم فى إصرار ، ويحثها على الاستمرار ، وعدم الاستسلام ، فقالت :

- إنك شاب فى مقتبل العمر يا (عصام) ، وستلتقى بعشرات ممن هن فى مثل عمرك ، أما أنا فعلى مشارف خريف العمر ، وأكبرك بخمسة عشر عاماً كاملة ، ثم أننى لست امرأة سوية ، بل معقّدة ، أحمل تجربة زواج قاسية ، ستظل آثارها محفورة على قلبى مدى الحياة ، فلماذا تربط حياتك بامرأة لن يمكنها إسعادك أبداً ؟ .. لماذا تصرّ على الشقاء ؟ .. كلاّ يا (عصام) .. تراجع .. إننا لن نلتقى بعد اليوم أبداً .

ألقت عبارتها ، وكأنها تلقى بيان انتحارها ، على حين قال هو فى رجاء :

- لا اعتبار لكل ذلك عندى يا (هيام) ، فحبك يملأ عروقى ، وكل الاعتبارات الأخرى تسقط أمام ذلك .. إن الشقاء الحقيقى فى ابتعادى عنك يا (هيام) ، فهذا هو ما أعجز عن احتماله .

أشاحت بوجهها ، حتى لا تضعف أمام رجائه ، وهى تقول :

- ينبغى أن نفترق يا (عصام) .. ارحل عن (الفيوم) ، أو أرحل أنا .. ستتألم بعض الوقت ، ولكنك ستدرك فيما بعد أنه كان الاختيار الأمثل .

اعتدل ، وحاول أن يتجلد ، وهو يقول :

- أهذا هو قرارك الأخير ؟

- نعم ..

- سأرحل إذن ، مادمت ترغبين فى ذلك ، سأغادر (مصر) كلها بعد بضعة أيام .

تجمّدت ، كما لو كانت قد تحوّلت إلى تمثال من الشمع ، وهو يغادر المكان ، وقد نجحت فى تنفيذ قرارها ، وفى أن تبدو قوية متماسكة ، ولكنها تشعر الآن برغبة قوية فى أن ترتمى تحت ساقيه ، وتتوسّل إليه أن يعود ، فهى تحبه ، وحبها له أقوى مما تصوّرت .. من كل الحصون والقلاع ، التى أحاطت بها قلبها ..

ولكن كلاً .. فلتقاوم كل سهام الحب ، ولتحتمل كل الآلام والشقاء ..

وراح الشاى ينسكب على الموقد ، وتصاعدت أبخرته ، وهى لا تشعر بشئ ..

لقد كانت فى عالم آخر ..

عالم اليأس ..

* * *



بدا كل شىء كئيباً قاتماً فى عينى (هيام) ، حينما استيقظت فى الصباح التالى ، فالأيام القادمة كانت تحمل لها عذاب الفراق .. فراقها عن (عصام) ، الذى عاقبها به ملاك الحب ؛ لأنها طردته من حياتها وقلبها يوماً .. وقد تحتمل هى عذابها ، ولكن ما يؤلمها هو ما سبَّبته لـ (عصام) من عذاب وشقاء ، وكم تمنَّت لو أنه هو هجرها ، أو كرهها ، بل ليته يلتقى بإنسانة أخرى تناسبه ، بدلا من أن يحمل فى أعماقه كل ذلك الحزن ، الذى قرأته فى عينيه أمس ..

وعندما غادرت فراشها ، وهبطت إلى الردهة ، فى الطابق الأرضى ، فوجئت بالحاج (حسن) يجالس خالها ، والحزن يملأ ملامحه ، حتى ليبدو وكأنما زاد عمره عشر سنوات ، منذ فارقته أمس ، ولم يكد يلمحها تقترب ، حتى هتف بها باكياً :

- (هيام) .. ساعدينى يا بنيتى .. أشفقى على جدك العجوز .

سألته فى قلق :

ـ ماذا حدث يا جدى ؟

ـ (عصام) .. إنه يريد العودة إلى (أمريكا) .. يريد أن يهجرنى مرة أخرى .. لست أدرى ماذا دهاه بعد انصرافكما أمس ؟ .. كنا قد اتفقنا على أن يقيم معى ، هو ومن يتزوَّجها ، ثم أتنازل له عن كل شىء ، ولقد بدا كارهاً لفكرة السفر ، موافقاً على منطق تماماً ، وفجأة انقلب كل شىء ، وعاودته حمى الهجرة بغتة أمس .

غمغم خالها فى أسف :

ـ لقد حاولت إثناءه عن ذلك ، ولكنه بدا شديد الإصرار ، على نحو عجيب .

تمتمت هى فى لهجة حزينة :

ـ ولماذا نحاول منعه ، مادامت هذه هى رغبته .

هتف الجد فى انفعال :

ـ رغبته ؟! .. ألا تدركين ما يعنيه بقاء (عصام) بالنسبة لى .. إنه ينسينى لوعتى لفقد ولدى .. ولو رحل

فسأموت .. هل تفهمين ؟ .. سأموت .

ثم أجهش ببكاء حار ، فأسرعت إليه ، وألقى هو برأسه فوق كتفها ، كما لو كان طفلا صغيراً ، وأرادت هى أن تخبره أنها أشد منه حزناً ولوعة ، ولكنها تعلم أن ذهاب (عصام) هو الحل الأمثل ، حتى لا يقعان فى جبروت حب عاصف ، لا يخضع لمنطق أو عقل أو قواعد ، ويرفضه الجميع ، حتى لا يشقى به سواهما ، ولكن العجوز أضاف وهو ينتحب :

ـ ساعدينا على إقناعه يا (هيام) .. إننا نعلم كم يحبك ويحترمك ، ويقدِّر رأيك .. إنه يجد فيك حنان الأم ، التى حُرم منها .. حاولى إقناعه .. أرجوك .

دوَّت فى عقلها العبارة الأخيرة : « يجد فيك حنان الأم ، التى حرم منها » ..

إذن فهذا ما يمكن للآخرين أن يتخيلوه ، من علاقتها به ..

هذه هى العلاقة المنطقية الوحيدة ، بين امرأة فى خريف العمر ، وشاب فى ريعان الصبا .

وهم على حق ..

قد يراها هو الآن أشبه بالشابة الجميلة ، التى تركها قبل سفره ، ولكنه ، وبعد عدة أعوام ، سيدرك أن قطار شبابها على وشك الرحيل ..

وفى هدوء ربتت على رأس الجد ، قائلة :

— سأحاول يا جدى .. سأحاول من أجلك ..

* * *

مضت فترة من الصمت ، بعد أن طرقت باب حجرته ، لتسمعه يقول فى وهن :

— ادخـــل .

دلفت إلى حجرته ، وهو منهمك فى إعداد حقائبه والذبول يملأ وجهه ، ويسيطر على عينيه المرهقتين ، مؤكداً أنه لم يذق طعم النوم ، منذ ليلة أمس ، فقالت فى وهن مماثل :

— لم أتصوّر أنك ستفعل ما طلبته منك بهــذه السرعة .

لم يلتفت إليها ، وهو يقول :

— ولِمَ الانتظار ؟! .. من الأفضل أن يتم كل شىء فى سرعة ، لأجنّب نفسى مشقة الانتظار .

— جدك يتألم لرحيلك .

— ربما أمكننى أن أقنعه يوماً بالعيش معى فى (أمريكا) .

أسندت رأسهـا إلى جدار الحجرة ، وأسبلت جفنيها ، وهى تغمغم فى ألم :

— ليتك تدرك أننى أفعل ذلك من أجلك .

— لست أفهم سوى شىء واحد ، وهو أنك لو عرفت الحب ، كما عرفته أنا ، ما أمكنك أن تطالبينى بالرحيل ، مهما كانت الاعتبارات .

— الحب لا يعرف الأنانية ، ومن الأنانية أن ترتبط بإنسانة مثلى .

— بل من الأنانية أن تحرمينى منك ، بعـــد أن أحببتك كل هذا الحب .

سالت من عينيها دموع المرارة ، وهى تقول :

— أنا أيضاً أحبك .. أحبك بكل ذرة فى كيانى ..

عقلى ولسانى يطالبانك بالرحيل ، وقلبى يتوسّل إليك أن تبقى .

ارتجفت يده ، وانتفض جسده كله ، والتفت إليها بحركة حادة ، وقد هزّ ذلك الاعتراف مشاعره ، ثم اندفع نحوها ، وراح يقبّل يديها فى حرارة وهو يهتف :

– أحقًّا ؟! .. أحقًّا تحبيننى كل هذا الحب ؟

سال الدمع على وجنتيها ، وهى تهز رأسها إيجاباً ، مغمضة العينين ، فاستطرد فى حرارة :

– لا تؤلمينى على هذا النحو مرة أخرى أبداً ، فأنت لا تعرفين مدى العذاب الذى عانيته ، لمجرد تخيل رحيلى عنك .. لا يمكنك أن تتصوّرى كيف أمضيت ليلتى ، وأنا أعلم أننى لن أراك بعد الآن .

مسحت على شعره فى حنان ، مغمغمة :

– كل ما أطلبه منك هو أن تمنح حبنا فرصة .. امنحه مهلة من الوقت ، نتظاهر خلالها أننا مجرد صديقين مخلصين .

ارتسم الارتياع على وجهه ، وهو يقول :

– لست أفهم .. كيف تطالبيننى بأن نكون مجرّد صديقين ، وقد اعترف كل منا بحبه للآخر منذ لحظات .

قالت فى رجاء :

– هذا ما أقرّته قلوبنا ، وعلينا أن نمنح عقلينا الفرصة ، للتصديق على ذلك القرار .. يجب أن نتأكد من أن حبنا ليس مجرّد نزوة ، أو اندفاع .. بل حب حقيقى ، لابد له من أن يستمر ويبقى ، وهذا يحتاج إلى بعض الوقت .

ابتسم ، وهو يمسح دموعه ، قائلا :

– أعرف كيف تفكرين .. إنك تتصوريننى مجرد شاب مندفع ، وراء عاطفة عابرة ، لامرأة ناضجة ، تحاول أن تزن الحب بعقلها وقلبها فى آن واحد .. أتخشين أن أتراجع عن هذا الحب يوماً ؟ .. كم أنت واهمة !

قالت فى مرارة :

ـ لا تنس أن تلك المرأة ، التى تتحدث عنها ، انساقت يوماً خلف قلبها وحده ، فعاشت تجربة أليمة ، علمتها ألا تثق فى الأيام والكلمات فى سهولة .

قبّل كفها ، قائلا :

ـ ليتك تنسين تلك التجربة القاسية ، وتذكرين فقط حبي وإخلاصى .

قالت فى لهجة أقرب إلى الرجاء :

ـ ليتك أنت توافق على ما طلبته منك ، وتمنح حبنا بعض الوقت ، ليقتنع به عقلانا .

أجابها فى لهجة جادة :

ـ أعدك أن أكون رزيناً فى حبك ، وأن أكتفى بصداقتك بعض الوقت ، حتى أثبت لك أن حبي ليس مجرّد نزوة ، وحتى تتأكدى من صدق وإخلاصى لهذا الحب ، وأننى أرغب حقاً فى أن تصبحى زوجتى .

خيّل إليه أنه قد نطق بكلمة مرعبة ؛ إذ ارتسم الفزع فى وجهها ، وهى تهتف :

ـ لا .. إذا أردت أن يستمر حبنا ، فحذار أن تحدثنى عن الزواج .

ـ ولكنه النهاية الطبيعية لأى حب حقيق شريف .

ـ أنت لا تعلم عما تتحدث .. لست أحب أن أسمعك تذكر تلك الكلمة .. أرجوك .

هدأ من روعها ، مغمغماً :

ـ حسناً .. حسناً .. إننى أقدر مخاوفك .. فلننفذ أولا ما اتفقنا عليه ، ولنترك للقدر اتخاذ القرار ، وأنا واثق من أنه سيكون رحيماً رءوفاً بحبنا ومشاعرنا .

أجابته فى خفوت :

ـ نعم .. اترك القرار للقدر ..

وصمتت وهلة ، ثم استطردت فى حزن :

ـ ولا تثق كثيراً فى أحكامه ..

* * *

٥ ـ ساحبك دائما ..

ظلاً يلتقيان بصورة شبه يومية ، ويقضيان معاً الساعات الطوال .. طوال فى عمر الزمن ، وقصار فى عمر حبهما .. واستمرَّت علاقتهما ، التى تحمل ظاهر الصداقة ، وباطن الحب ، واحترم (عصام) وعده لها ، فلم يشر يوماً إلى عواطفه المشبوبة ، أو هيامه بها ، بل حرص كل الحرص على مشاركتها اهتماماتها وأفكارها ، آملا أن يكون هذا هو السبيل الصحيح لنيل ثقتها ، وتأكيد كونه ناضجاً بأفكاره ومشاعره ، وأنها تستطيع أن تطمئن إليه ، وتقنع به زوجاً فى المستقبل ، ولقد أدمنا تلك اللقاءات اليومية ، التى تجدد السعادة فى قلبيهما ، حتى باتا لا يفترقان إلا مع مغيب الشمس ، انتظاراً لشروقها فى يوم تال ..

واستمرَّت تلك اللقاءات شهرين كاملين ، صار خلالهما كل مكان يجمعهما أشبه بجنة خاصة لحبهما ، و (عصام) يترقب دوماً ذلك اليوم ، الذى يفصح فيه

عن حقيقة مشاعره ، على حين بقى فى نفس (هيام) ذلك الخوف المجهول ، الذى يطارد ماضيها ، ويتربَّص بمستقبلها ، وهى تعجز عن طرده من أعماقها ، على الرغم من هزيمة قلبها ، وإصرارها على استسلام عقلها أيضاً ، لتتيقَّن من صدق مشاعرهما ، ونضج حبهما ، وهى تعلم أن خوفها ، وعدم ثقتها بالمستقبل ، هما فى الوقت ذاته سر استسلامها للحب ، وهزيمتها أمامه ، وهى هزيمة تتوق إليها كل القلوب النابضة ..

ومع الأيام ، أخذت (هيام) تستسلم رويداً رويداً لتلك الهزيمة الممتعة ، وبدأت تسمح لـ (عصام) بإلقاء بعض عبارات الحب على مسامعها ، وتنتشى لها ، كما لو كانت مراهقة صغيرة ، تذوق الحب لأول مرة ..

وتلاشت أمام سعادتها كل مخاوفها ..

حتى فارق العمر بينهما ذاب وتلاشى ، ولم تعد هى أو هو يشعران به ..

أما خالها والحاج (حسن) ، فلم تبد لهما تلك العلاقة بأكثر من علاقة أخت بأخيها ، وصداقة تمتدّ جذورها

إلى الماضى ، وتعززها رابطة قربى وصداقة بين الأسرتين ، وسعد الجد لأن تلك الصداقة قد أقنعت حفيده بالبقاء ، وابتهج الخال ؛ لأنها قد أعادت إلى (هيام) إشراقها ، وأقبالها على الحياة ..

أما أهالى (الفيوم) ، فقد صاروا يثرثرون حول علاقة (عصام) و (هيام) ، وعلى الرغم من أن تاريخ (هيام) لديهم ، كان يشف عن الجدية والاستقامة ، إلا أن السعادة التى تملأ ملامحها ، وهى بصحبة (عصام) وتورّد وجنتيها ، فى حديثها معه ، جعلا الجميع يجزمون بأنهما ليسا صديقين .. وإنما عاشقين ..

وذات يوم ، وهما يجوّلان معاً ، وسط الطبيعة الخلابة ، قالت (هيام) لـ (عصام) :

– ألم يبلغك جدى (حسن) بالمفاجأة السعيدة ؟

تطلّع إليها بابتسامة عذبة ، مغمغماً :

– أية مفاجأة ؟

هتفت فى مرح :

– ستعود (وفاء) ابنة خالى بعد يومين .. لقد

أبرقت إلينا بذلك ، ولا يمكنك أن تتصوّر سعادة خالى.

اضطرب (عصام) ، حينما سمع منها ذلك ، وقفزت به الذكريات فجأة إلى الوراء .. إلى (وفاء) ، صديقة الطفولة ، وحب المراهقة .. إلى أوقاته السعيدة معها .. لقد كان يسرق الحلوى من حقيبة (هيام) ليقدّمها لها .. تذكر كيف أخبرته (وفاء) يوماً ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وهى تصغره بعامين ، أن القواقع تحتفظ دوماً بالأسرار ، وتحقق الأمانى ، فأسرع يحضر قوقعة ، بثّها كل منهما حبه وعشقه للآخر ثم دفناها إلى جوار شجرة كبيرة فى الحديقة ، وهما يتصوّران أنها ستحفظ حبهما إلى الأبد ، وتحقّق أمنيات مستقبلهما .. كم كانت مشاعرهما بريئة ساذجة ، ولكن .. أبقى شىء من هذا الحب فى أعماقه .. كلا .. إنه لايعتقد ذلك ، فحبه لـ (هيام) صار يملأ كيانه ، ويطغى على كل ذكريات ماضيه ..

قطعت (هيام) أفكاره ، وهى تسأله :

– فيم تفكر ؟

ـ لا شيء .

ـ أراهنك أنها (وفاء) ، فلقد كنتما صديقين حميمين منذ الطفولة .

ـ أظن الأمر سيختلف الآن .

ـ لماذا ؟

ـ لأننا لم نعد طفلين ، ولا ريب أن مشاعرنا الآن تختلف ، ولست أظن خالك سيسمح بقيام صداقة بين شاب وشابة مثلنا .

ـ ولكنه لا يمانع فى صداقتنا .. أعنى أنا وأنت .

ـ هذا لأنه يعتبرك بمثابة ..

بتر عبارته بغتة ، وقد أدرك خطأ ما كان سينطق به ، إلا أن (هيام) أكملتها فى حزن :

ـ بمثابة أخت كبرى لك .. أو أم .. من يدرى؟

ألم تقرأ الدهشة والاستنكار فى عينيه ، حينما نطقت اسمى أمامه مجرداً ، دون أن تسبقه بلقب (أبله) كما فى الماضى ؟ .. أراهنك أن أقصى ما جال بخاطره هو أن

هذا نتاج اندماجك فى المجتمع الأمريكى ، حيث يهملون تلك الاعتبارات .

غمغم محاولا التخفيف من حساسيتها :

ـ أنت شديدة الحساسية ، لقد أخبرتك من قبل أن الحب لا يعترف بأية فوارق ، سواء أكانت اجتماعية أم مادية ، أو حتى زمنية .. لقد خلق ليحطم كل الحواجز .

شبكت أصابعها بأصابعه ، وهى تقول :

ـ العوامل الزمنية هى أقواها وأكثرها مناعة .

ضم كفها إلى قلبه ، وهو يقول فى إخلاص :

ـ سيهزمها حبنا يا (هيام) .

ـ ها نحن ذا نعود للتحدث كالمحبين ، على الرغم من اتفاقنا .

ـ ولِمَ نواصل خداعنا لأنفسنا يا (هيام) .. لقد اعترف كل منا للآخر بحبه منذ البداية ، ولقد آن الأوان لننزع تلك الأقنعة الزائفة ، ونعترف بمشاعرنا .

عجزت هذه المرة عن المقاومة ، فتركت رأسها تسترخى على كتفه ، وهى تقول :

— إنك لا تعلم كم أحبك ، وكم تخيفنى فكرة فراقك لى يوماً .. لقد أصبحت كل حياتى ، وسأعترف بحبى لك ، على الرغم من خوفى من نفسى ، ومن نظرة المجتمع ، حينما يفاجأ بحب امرأة فى خريف العمر مثلى ، لشاب فى مقتبل العمر مثلك .

قبّل رأسها ، قائلا :

— اطرحى عنك كل هذه المخاوف يا حبيبتى .. لن تفرّق بيننا أية قوة فى الأرض .

عادا إلى المنزل ، وقد تفجّرت كل عواطفهما المشبوبة ، وفى الطريق سألته (هيام) :

— أستأتى للترحيب بـ (وفاء) بعد غد ؟

— بالطبع .. أستقضى هنا إجازة قصيرة ؟

— بل ستبقى على نحو دائم ، فلقد أنهت دراستها ، وتزوّجت أمها بآخر ، ولم يعد هناك ما يربطها بالبقاء فى (دمشق) .

ثم سألته فجأة فى لهفة :

— أتسعدك عودتها ؟

عاوده الاضطراب ، وهو يتنحنح مغمغماً :

— بالطبع .. إنها صديقة قديمة و ..

قاطعته فى سعادة :

— إننى أحبها جداً ، ثم إن فرحة خالى بعودتها تسعدنى ، فلن يمكنك أن تتصوّر مدى سعادته بعودتها ..

وعلى الرغم من أن (عصام) كان يعيش أجمل أيام حياته وأسعدها ، بعد أن رفعت (هيام) كل الحواجز عن حبهما ، ومهدت الطريق إليه بالسعادة والآمال ، إلا أن ورود اسم (وفاء) فى حديثهما أورثه قلقاً خفياً لم يدر كنهه ، فـ (وفاء) تذكره بعواطفه البريئة الأولى ونبض قلبه الأوّل ، و .. ولكن .. أليس حبه لـ(هيام) صادقاً ؟ .. بلى إنه كذلك ، ولكن ..

تملكه الاضطراب ، حينما توقفت أفكاره عند تلك الكلمة ..

ولكن ماذا ؟

إنه ومنذ البداية يتمنى أن تبادله (هيام) حبه ، كما يتمنى أى محب ، إلا أنه لم يفكر أبداً ، على نحو جدى ، فى ظروفها النفسية المعقّدة ، ولم يتعاطف مع تجربتها السابقة الأليمة ، فعلى الرغم من مرارتها ، وهى تتحدّث عنها ، إلا أنه لا يذكر إنصاته لها على نحو جيد فقد كان كل ما يشغله هو أن تبادله الحب ، الذى يشعر به نحوها .. وهذه أنانية ..

ولكن .. ألا يحمل الحب فى طيّاته شيئاً من الأنانية ؟

إن الحب الأفلاطونى ، القائم على التضحية وإنكار الذات وَهْم لا وجود له إلا فى خيال الأدباء والشعراء أما حبه لها فحب إنسانى ، منطقى ، يقوم على تبادل المشاعر ..

ولكن أى نوع من المشاعر ؟ ..

مشاعر الحب والهيام فحسب ، أم حتى الآلام والشقاء ؟ ..

فجأة نفض عنه كل تلك الأحاسيس والتساؤلات وألقاها خلف ظهره ، وهو يشعر بمبالغته فى مشاعره .

وافترقا ..

افترقا على موعد باللقاء ..

* * *

٦ ـ صراع الحب ..

استقبلته (هيام) على باب حديقة ڤيلا خالها ، وهى تقول فى قلق :

ــ لماذا تأخرت ؟ .. إن جدك هنا منذ زمن ، ولقد قال إنك سافرت إلى (القاهرة) ، ولقد أقلقتنى عليك كثيراً .

ــ لقد تعطلت سيارتى بعض الوقت .. هل وصلت (وفاء) ؟

ــ نعم .. إنها تجلس فى الناحية الأخرى من الحديقة ، مع جدك وخالى ، وبالمناسبة ، ينبغى أن نحرص أشد الحرص على إخفاء مشاعرنا أمامهم ، فلقد بدأ خالى يتساءل عن كثرة خروجنا معاً .. صحيح أنه لا يشك فى وجود عاطفة تجمعنا ، إلا أنه سرعان مايشعر بذلك ، كما أن (وفاء) ستدرك هذا بسرعة ؛ بحكم صداقتها لك ، وغريزتها كأنثى .

ــ ولم كل هذه التعقيدات والمخاوف ؟ لم لا نعلن حبنا على الملأ ؟

ــ هل جننت ؟ .. وكيف نواجههم بذلك ؟

ــ كما يواجه أى حبيبين أسرتيهما بحبهما .

ــ لسنا كأى حبيبين .

ــ أستعودين لتلك النغمة مرة أخرى ؟ .. الحب ليس عاراً يا (هيام) ، ولا ينبغى أن نخفيه ، ومن الضرورى أن تنتزعى من رأسك تلك الأفكار المعقدة .. إننا سنواجه الاستنكار والاعتراض فى البداية ، وعلينا أن نصمد ، ونواجه كل ذلك ، حتى يرضخوا لحبنا ، ولرغبتنا فى الزواج .

مطت شفتيها ، وهى تقول فى مرارة :

ــ الزواج ؟! .. أتعلم فيما كانا يتحدثان هذا الصباح ؟ .. كانا يقولان إنك خير زوج لـ (وفاء) ، وإنها خير زوجة لك .

اضطرب وتلعثم ، وهو يقول :

ــ ربما يرجعان ذلك إلى صداقتى القديمة لها ، ولكنها لا تكفى لذلك بالطبع .

– إنه تفكير طبيعى لهما ، خاصة وأنكما شابان متقاربان فى العمر والطبائع .

ثم تنهدت فى مرارة ، مستطردة :

– وعلى أية حال ، لم يحن الوقت لمصارحتهم بحقيقة عواطفنا بعد .. يكفى أن نحتفظ بها لأنفسنا ، فى هذه المرحلة على الأقل .

– ومتى تنتهى هذه المرحلة فى رأيك ؟

– حينما تواتينى الشجاعة الكافية لمواجهتهم بحبنا ، وقبول عرضك للزواج منى .

– كما تشائين ، وإن كنت أفضل أن نعلن حبنا ، فهو أجمل من أن نخفيه .

– اصمت إذن ، فها هم أولاء قادمون نحونا .

أرسل بصره إلى حيث أشارت ، ورأى خالها وهو يقترب بصحبة (وفاء) ، وتعلقت عيون (عصام) بالفتاة ، وهو يهتف فى أعماقه :

– يا إلهى !! .. لقد تغيرت كثيراً .. صارت فاتنة ، باهرة الحسن ، بأكثر مما كنت أتوقع وأتصور ..

إنها أجمل من صورتها كثيراً .. من كان يتصور أن تصبح (وفاء) هكذا ؟.. كلاً .. إنها دوماً جميلة ، بشعرها الكستنائى ، وعينيها الخضراوين .. إنها بالنسبة لى دوماً ملاك رومانسى حالم ، أنستنى عيناه التدقيق فى تكوينه ، ولكن ها هى ذى الآن .. فتاة ناضجة ، مكتملة الأنوثة ، أضفت عليها سنوات النضج حسناً وجمالا وجاذبية .

قاطعته صيحة الخال ، وهو يقول فى مرح :

– ها هوذا (عصام) أخيراً .. صديق طفولتك ، الذى تسألين عنه منذ حضورك .

صافحها (عصام) فى انبهار ، وهو يملأ عينيه بحمرة الخجل ، التى صبغت وجهها ، وزادته فتنة ، وقال :

– مرحباً بك يا (وفاء) .. كم تسعدنى عودتك .

أطلت من عينيها نظرة تجمع بين الشوق والاضطراب ، وهى تقول :

– كيف حالك أنت يا (عصام) ؟

شعر بكفها ترتعش فى راحته ، ورأى فى عينيها نفس النظرة الرومانسية الحالمة ، وتنبه فجأة إلى أن (هيام) تراقبهما فى توتر وقلق ، فسحب يده من يد (وفاء) ، وتلعثم محاولا البحث عن كلمات مناسبة للقاء ، وقد أقلقه ذلك الإحساس المباغت ، الذى ملأ نفسه ، حينما التقى بـ (وفاء) ، وتلك النظرة النافذة ، التى حدجته بها (هيام) ، محاولة استشفاف ما يدور بنفسه ، حتى أنقذ الخال الموقف ، دون أن يدرى ، وهو يقول :

– ماذا أصابكما ؟ .. إنكما تبدوان جامدين كتمثالين .. أنسيتما كيف كنتما تملآن المنزل صخباً وضجيجاً فى الماضى ؟

ضحكت (وفاء) ، قائلة :

– أبى .. إننا لم تعد طفلين .

صمت الخال برهة ، تأملهما خلالها فى اهتمام ، ثم ابتسم مغمغماً :

– هذا صحيح .. لقد صار (عصام) شاباً وسيماً ،

وصرت أنت فتاة رائعة .. إن مرآكما معاً يكمل سعادتى .

شعر (عصام) بغصة فى حلقه ، حينما لمح (هيام) ، وقد انزوت بعيداً ، وكأنما لم تجد لها مكاناً وسط فيض العواطف هذا ، فتقدم نحوها ، وأمسك يدها ، وهو يقول فى مرح :

– لسنا وحدنا نكمل سعادتك يا عماه .. أنسيت ابنتك الكبرى (هيام) .

أحاط الخال كتف (هيام) بذراعه ، وهو يقول :

– وكيف أنساها ؟ .. إنها تملأ عقلى وقلبى دوماً .. هيا بنا نلحق بجدكما ، فهو يجرى بعض التجارب – غير المأمونة – فى حديقة المنزل .

وعلى الرغم من البهجة والمرح ، اللذين أغرقا المكان ، لم تنجح (هيام) أبداً فى محو ذلك القلق ، الذى ملأ نفسها ، لحظة المصافحة ..

مصافحة (عصام) و (وفاء) ..

* * *

أدرك (عصام) ، فى الأيام التالية ، أن (وفاء) ما زالت تحتفظ له بمشاعر الحب القديم ، وأن السنوات التى باعدت بينهما لم تنتزع منها هذا الحب ، ولقد أسعده هذا فى أعماقه ، بل دفعه إلى مبادلتها بعضاً من مشاعرها ، إلا أن الصراع فى أعماقه صار عنيفاً ، بعد أن احتلت (هيام) جانباً من قلبه ، بعد أن طاردها بحبه ، وحاصرها بعواطفه ، حتى استسلمت له ..

وكثيراً ما تساءل : أيمكن لرجل أن يحب اثنتين ، بنفس القوة ؟ ..

كان هذا السؤال يزعجه كثيراً ، فهو يلتزم مع (هيام) بجانب أخلاقى ، يدفعه إلى الإخلاص لها دوماً ، وتجنيبها الشعور بالمنافسة مع فتاة أصغر عمراً ، وأكثر جمالا مثل (وفاء) ، وفى نفس الوقت كان يعجز عن انتزاع (وفاء) من تفكيره ، وعن مقاومة انجذابه الشديد إليها ، ورغبته العارمة فى بعث حبهما من جديد ، وكان يحاول إقناع نفسه بأن هذا ليس سوى نوع من

الانجذاب لحنين الماضى ، وأنه لا يحب سوى (هيام) ، على الرغم من محاولات (وفاء) المستمرة للتقرب إليه ، وإثارة مشاعره القديمة نحوها ، وهو يعاملها بنوع من التحفظ ، ويظهر لها جانب الصداقة والتقدير ، دون أن يشير بحرف واحد إلى ماضيهما ، يدفعه إلى ذلك أمران ، أولهما : إحساسه بأن حبه المضطرب لها ، ينبغى ألا يتجاوز حدود الذكرى ، وأنه لا يستقيم أبداً مع مشاعره نحو (هيام) ، وثانيهما : خوفه من أن تدرك (هيام) ، بغريزتها الأنثوية ، حقيقة مشاعره نحو (وفاء) ، فتعود إليها عقدها ومخاوفها ..

ولكن هذا كان يضنيه ..

كان الإحباط ، الذى يملأ وجه (وفاء) ، كلما استقبل عواطفها ببرود ، يورثه حزناً شديداً ، يحاول القضاء عليه بالمبالغة فى منح عواطفه لـ (هيام) ، على نحو يبدو له شديد الافتعال ..

وأيقنت (وفاء) ، مع مرور الأيام ، أن حب

(عصام) القديم لها ، لم يعد له وجود ، وعلى الرغم من كل محاولات التخفى والتظاهر ، لم يكن من الصعب أن تدرك (وفاء)، أن التى احتلت مكانها فى قلب (عصام) هى ابنة عمتها ، التى كانت تعتبرها دوماً الأخت الكبرى الحنون ، فكما يقولون : « الصب تفضحه عيونه » ..

ولقد تساءلت (وفاء) دوماً : كيف وقع (عصام) فى حب (هيام) ، التى تكبرها بتسعة عشر عاماً ، والتى كانا يعتبرانها بمثابة الأم ، وهما بعد صغيران ؟..

كيف أمكنها أن تنتزع مكانها فى قلبه ؟ ..

ولكن هذا قدرها .. وما دام (عصام) يحب (هيام) ، فينبغى أن تفسح لهما الطريق ..

وفى البداية كانت ترمقهما بنظرات مستنكرة ، متهمة ، وكانت نظراتها تحاصرهما ، وتسبب لهما الكثير من القلق والاضطراب ، ثم هدأت مشاعرها مع استسلامها اليائس لواقع الأمور ، وتلاشت نظرة الاتهام

من عينيها ، وحاولت أن تروّض نفسها على التعايش مع (عصام) بصفة جديدة ، هى صفة صديق الطفولة فحسب ، كما أبقت على صداقتها واحترامها لابنة عمتها ، وإن عجزت عن ترويض نفسها على حبها كما فى الماضى ..

وعلى الرغم من كل محاولاتها ، ظل قلب (وفاء) يحمل حزناً ..

حزناً عميقاً ..

* * *



٧ ـ سعادة مقيدة ..

اعتاد (عصام) أن يتعامل مع (وفاء) و (هيام) على نحو شبه رسمى ، بعد أن اضطره وجود (وفاء) إلى تباعد لقاءاته مع (هيام) ، وكانت لقاءاتهما تتم غالباً فى مكان خلوى ، بعيداً عن الأعين ، وفى ذلك اليوم ، ألقت (هيام) رأسها على كتفه فى اشتياق ، هاتفة :

ـ كم أوحشتنى يا (عصام) .. أسبوع كامل لم نلتق فيه .. كيف طاوعك قلبك على هذا ؟

مسح على شعرها ، مغمغماً فى حنان :

ـ أنت أيضاً أوحشتنى كثيراً .. كنت أقضى بعض الأعمال فى (القاهرة) ، وعدت منذ يومين .

ـ يومان !! .. أحرمتنى رؤيتك يومين كاملين ، وأنت هنا .

وتشبثت بذراعه ، وكأنها تخشى أن تفقده ، وهى تستطرد :

ـ لقد كنت متلهفة لرؤيتك .. لِمَ لم تأت إلى منزلنا فور عودتك ؟

ـ لأننى سئمت تمثيل هذا الدور .

ـ أى دور ؟

ـ دور صديق العائلة ، الذى يأتى للتحدث فى مواضيع شتى ، ويضطر لتوزيع ابتساماته ومجاملاته على الجميع .. إلى متى سنخفى عنهم حقيقة حبنا ، ونظل ندخر مشاعرنا وعواطفنا للقاءات سخيفة ، كما لو كنا نرتكب جريمة ؟ .. إننى أتمنى أحياناً أن أتجاهل وعدى لك ، وأصرخ وسطهم أننى أحبك ، وأريد الزواج منك .

أسعدتها عواطفه المشبوبة ، ولكن سعادتها تقيدت بمخاوفها وقلقها ، فغمغمت فى رجاء :

ـ إننى أقدر متاعبك يا حبيبى ، وكل ما أرجوه منك هو مزيد من الصبر .. ينبغى أن نختار الوقت المناسب لنصرح لهم بحبنا ، ونقنعهم به .

ـ ولكن هذا الوقت المناسب لن يأتى أبداً ..

ما الذى يدعونا إلى الانتظار ؟ .. ولماذا نصرّ على محاصرة أنفسنا بكل القلق والاضطراب ، خشية أن يكشفوا أمرنا ، ما دام ما نخفيه اليوم سنعلنه غداً .

لم تجد ما تقوله ، وهى تعترف لنفسها بأنه على حق ، وبأنها تتخذ من ذلك التأجيل حجة ؛ لمداراة خوفها من إعلان ذلك الحب رسمياً، ومن أن تأتى لحظة يواجهها فيها الآخرون بكل الحجج والمبررات المنطقية، التى تجعل هذا الحب مستحيلا، والتى تتهم قبولها الزواج من شاب يصغرها بخمسة عشر عاماً بالأنانية ..

إنها تخشى أن تضعف أمام حججهم واتهاماتهم ، تحت دعوى المثالية وإنكار الذات، فتتخلى عن حبيبها لأخرى ، أكثر ملاءمة له ، كما يفرض عليها الحب ..

إنها تعلم أنه لن يمكنها القيام بمثل هذه التضحية ، وأنها لن تحتمل فراقه أبداً ، فعلى الرغم من أنها قد حاولت إبعاده عنها فى البداية، بدعوى التعقل والمنطقية، إلا أن حبه صار يجرى فى عروقها مجرى الدم ، ومن

المستحيل أن تتخلى عنه ، ولتذهب كل دواعى التعقل والمثاليات إلى الجحيم ..

إنها تفضّل أن يبقى هذا الوضع ، وأن يكتفيا بلقاء بضع ساعات ، يلتهمان فيها الحب والأشواق التهاماً ، على أن يعلنا حبهما ، فيقضيا عمريهما فى محاربة الآخرين له ، وفى أنهار القلق والتوتر والصراع ..

أما (عصام) ، فقد كان رأيه يختلف ..

كان يصر على إعلان حبهما ، ليس خوفاً من التظاهر وقلق الانتظار كما يدعى ، وإنما حسماً لذلك الصراع الملتهب فى أعماقه ، منذ عودة (وفاء) ، وكأنما يحاول أن يثبت لنفسه، قبل الآخرين، أنه لن يخون حبه لـ (هيام) ، بسبب عاطفته القديمة نحو (وفاء) ، والتى يناضل لمحاربتها يوماً ، ثم يستسلم لها فى اليوم التالى ..

أراد أن يبرئ نفسه من تهمة خيانة الحب الذى سعى إليه ، وأوقد شعلته ، وجاهد ليلهبه ويشعله ..

ولكن أيكفى إعلان حبه لـ (هيام) ، لتنطفئ جذوة ذلك الصراع ؟ ..

هذا هو السؤال ، الذى يخشى معرفة جوابه ..

وقطعت (هيام) حبل الأفكار ، وهى تقــول فى استعطاف :

ـ حبيبى .. دعنا لا نضيع الساعات القلائل ، التى نلتقى خلالها ، فى مشاكل وهموم حبنا .. دعنا ننعم فيها بسعادة الحب دون عذابه .

قال فى حنان حقيق ، وهو يمسح على شعرها :

ـ هروبنا المستمر ، من مواجهة هذه المخاوف ، لن يبعدها عنا ، بل سيجعلها تسيطر على حياتنا وحبنا ، وتعصف به يوماً .

أطلت من عينيها نظرة فزعة ، وهى تضع أصابعها على فمه ، لتمنعه من الكلام ، هاتفة :

ـ لا تقل ذلك .. إن حبنا سيبقى .. لن نسمح لأى شىء بأن يعصف به .. أليس كذلك ؟ .. أليس كذلك يا (عصام) ؟ .. إننى لن أحتمل الحياة بدونك أبداً .

قبّل رأسها ، محاولا تهدئة مخاوفها ، وهو يقول :

ـ لن أفارقك أبداً يا (هيام) ، فأنا أيضاً لا أتصور الحياة بدونك .

ولكن شيئاً ما فى أعماقه ، كان يهز ثقته فى صدق عبارته .. يهزه فى شدة ..

* * *

دلف (عصام) إلى حجرة والد (وفاء) ، الذى يرقد فى فراش المرض ، ولم يكد الوالد يراه ،حتى تهللت أساريره ، وهو يهتف به :

ـ تعال يا (عصام) .

اقترب (عصام) ، وجلس إلى جواره فى توتر واضطراب ، مغمغماً :

ـ حمداً لله على سلامتك يا عماه .. لقد أخبرنى الطبيب أن صحتك فى تحسن .

ـ نحمد الله يا ولدى .. لقد أرهقت جدك معى كثيراً ، على الرغم من عمره الكبير .

ـ إنه يحبك كثيراً يا عماه ، وهو يدعو لك فى كل صلاة بالشفاء .

— إننا أسرة واحدة يا ولدى .. أليس كذلك ؟

— بالطبع يا عماه .

— ما رأيك فى ذلك الطبيب ، الذى يشرف على علاجى ؟

أدهش السؤال (عصام)، إلا أنه أجاب فى هدوء:

— أتقصد الدكتور (رفيق) ؟ .. إنه رجل ممتاز ، و (الفيوم) كلها تشيد به .

تنهد الأب مغمغماً :

— من المؤسف أن هذا الرجل الممتاز سيتركنا ويرحل .

— إلى أين ؟

— إلى (الإسكندرية) ، فسيفتتح قريباً مستشفاه الخاص ، إلى جوار منزل عائلته .

— (الإسكندرية) ليست بعيدة على أية حال ، وهو سيأتى لزيارتك بالتأكيد .

رمقه الخال بنظرة ثاقبة متفحصة ، وهو يقول :

— ليس هذا هو المؤسف .. ألا تعلم أنه كان

يرغب فى الزواج من (هيام) ، وأنه قد عرض عليها رغبته هذه أكثر من مرة ؟

لم يخف على الخال ذلك الاضطراب ، الذى اعترى (عصام) لدى سماعه هذه العبارة ، فأردف فى هدوء:

— ومن المؤسف أنها رفضت عرضه هذا ، فلقد عودتها على اتخاذ كل قراراتها بنفسها ، ولا يمكننى أن أفرض عليها مثل هذا القرار ، ولكن الدكتور (رفيق) هو الشخص المناسب لها تماماً ، فهو ناجح ، دمث الخلق ، يكبرها بسبعة أعوام فقط ، فضلا عن ثقافته الواسعة ، ومميزاته الأخرى ، ألا تتفق معى فى أنه خير زوج لها ؟

تساقطت حبات العرق على جبين (عصام) ، وهو يغمغم فى تلعثم :

— بالتأكيد .. المهم هو أن تحبه هى ، ولو أنها ..

قاطعه الخال فى هدوء :

— لقد مرَّت (هيام) بتجربة قاسية ، جعلت مشاعرها مضطربة، وعواطفها غير سوية على الإطلاق،

مما يحجب عنها الكثير من الحقائق ، ويجعلنى لا أطمئن إلى ما يصدره قلبها من أحكام .

وتطلع إلى (عصام) بنظرة ، بدت وكأنها تنفذ إلى أعماقه ، وتسبر غوره ، وهو يستطرد :

— إنك بمثابة الأخ الصغير لها ، ولكنها تكنّ لك الكثير من التقدير والاحترام ، وليتك تناقشها فى هذا الأمر ، وتردها إلى صوابها .

غمغم (عصام) وهو ينهض :

— سأحاول يا عماه .

ولكنه شعر أن الخال يفهم كل شىء ، وأنه يحاول تنبيهه إلى خطورة علاقتهما العاطفية ، على نحو مستتر مهذب .. يريد أن يبلغه أنه يعرف كل أسرار حبهما الخفى ، وأنه يحذره من الاستمرار فى خطإ هذا الحب .

ودب الخوف فى أعماق (عصام) .. إنه يطالب بمواجهة الجميع بحبه لـ (هيام) ، ثم ها هوذا يضطرب ويرتبك ، لمجرد التلميح بذلك من الآخرين .. أين ذهبت تلك القوة ، التى يستشعرها فى أعماقه دوماً ،

وهو يجادل (هيام) فى ضرورة التصريح بهذا الحب ، والمجاهرة به ؟ ..

لماذا فقد الثقة فى نفسه ، وفى عاطفته ؛ لمجرد أن خالها ألمح له بوجود رجل آخر ، أكثر مناسبة لها ؟ ..

هل أخطأ حقًا فى حبه لـ (هيام) .. أم أن الخطأ يكمن فيه هو ؟

وقطع عليه الأب خواطره الحائرة ، وهو يسأله :

— إلى أين ؟

— سأتركك لتستريح قليلا .

— (هيام) فى الخارج .. خرجت لشراء بعض اللوازم ، ولكن (وفاء) فى الحديقة .. أستلتقى بها ؟

— نعم يا عمى .. بالتأكيد .

وتضاعف ارتباكه واضطرابه ، وهو يغلق الباب خلفه ، وأدرك أنه على أعتاب مرحلة جديدة .. مرحلة مخيفة ..

* * *

٨ ـ الحب الحائر ..

تطلع إلى (وفاء) ، وهى تطالع أحد الكتب فى الحديقة ، وغمغم فى أعماقه :

ـ ما أجملها !! إنها تملك وجها ملائكيًا ، يمنح الناظر إليها شعوراً رومانسيًا حالماً .

لم يدر لماذا ترتد إليه كل عواطفه الأولى ، كلما تطلع إلى وجهها ، واقترب منها ، ووقف خلف مقعدها مباشرة ، ثم همس فى صوت مفعم باشتياق لا إرادى :

ـ صباح الخير يا (وفاء) .

التفتت إليه فى اضطراب واحد ، ثم لم تلبث أن تمالكت نفسها ، وهى تقول :

ـ أهلا يا (عصام) .. صباح الخير .

التقط الكتاب الذى تقرؤه ، وقال :

ـ ماذا تقرئين؟

أجابته وهى تسترد كتابها فى رقة :

ـ بعض دواوين الشعر .

ابتسم ، قائلا :

ـ ما زلت كما أنت يا (وفاء) .. رومانسية حالمة ، تعشق الشعر ، وتبكيها أغنية عاطفية .

حاولت تغيير الموضوع ، وهى تغمغم :

ـ لقد خرجت (هيام) منذ قليل .

أومأ برأسه ، مجيباً :

ـ أعلم ذلك .. لقد جئت للاطمئنان على صحة والدك ، ووجدته بخير والحمد لله ، ولقد رأيتك تجلسين فى الحديقة ، وأردت أن أجلس معك قليلا .. هل يضايقك ذلك ؟

ـ كلا بالطبع .. تفضّل ..

جلس على المقعد المواجه لها ، وطغى عليهما شعور بالحرج والارتباك ، كأنهما يلتقيان لأول مرة ، وشملهما الصمت لحظات ، حاول خلالها (عصام) أن يبحث عن كلمات مناسبة ، حتى لفت انتباهه شىء ما فوق المائدة ، أعاده إلى ماضيه فى قوة ..

تلك القوقعة التى أودعاها حبهما وعشقهما فيما مضى ..

واضطربت (وفاء)، حينما رأته يتطلع إلى القوقعة ، وأسرعت تضع كتابها فوقها ؛ لتحجبها عن ناظريه ، إلا أنه أزاح الكتاب ، قائلا :

ـ أليست هذه قوقعتنا ، التى دفناها عند قاعدة الشجرة الكبيرة ، منذ عشر سنوات ؟

هتفت ، وكأنها تنفى عن نفسها اتهاماً خطيراً :

ـ كلاً .. ليست هى .

حاصرها بنظراته ، وهو يقول :

ـ بل هى .. لا زلت أذكر شكلها حتى الآن .

ـ كل القواقع تتشابه .

كان يحاصرها بنظراته ، وكأنما يحاول التسلل إلى أعماقها ، فأطرقت برأسها فراراً منه ، إلا أنه همس :

ـ وفاء .. لِمَ تحاولين إنكار كل الأشياء الجميلة التى كانت تربط بيننا فى الماضى ؟

أجابته ، وهى تتطلع إلى العشب الأخضر ، الممتد أمامها :

ـ هناك أشياء تبقى جميلة ، مادامت ملكاً للماضى فقط ، فإذا ما امتدت إليها يد الحاضر أفسدتها ، وأضاعت جمالها .

غمغم فى حيرة :

ـ لست أفهمك .

تنهدت ، قائلة فى مرارة :

ـ ألم أقلْ لك ؟ .. كان بعضنا يفهم البعض فى الماضى ، دون أن نفوه بحرف واحد ، أما الآن فلقد أصبحنا مجرد صديقين ، تربطهما علاقة رسمية ، وهذا ما ينبغى أن يكون بيننا الآن .

غمغم ، وهو ينقل بصره بين وجهها والقوقعة :

ـ أيمكن أن يكون هذا كل ما تبقى من حبنا القديم ؟

أشاحت بوجهها ، دون أن تجيب ، وشعر هو بدافع خفى ، يدعوه إلى الاسترسال ، وكأنما أعلن قلبه

العصيان على تلك الصداقة المصطنعة ، واستعاد إحساسه بالفتاة التى شاركته صباه ، فمال نحوها ، وهو يهمس :

— مشاعرى تعجز عن التفرقة بين الفتاة الجميلة ، التى تجلس أمامى الآن ، وتلك الصبية ، التى ربط الحب بين قلبينا فيما مضى ، والتى عاهدتنى على أن يبقى حبنا أبداً ، وأودعنا معاهدتنا تلك القوقعة .. أنسيت نزهاتنا الجميلة عند السواقى ؟ .. أنسيت يوم ألقيت نفسى فى الترعة لأنقذك ، على الرغم من أننى لم أكن أجيد السباحة ؟ .. أنسيت تشابك أصابعنا تحت تكعيبة العنب ، وسعادتنا آنذاك ؟ .. ألم يشهد كل ركن فى هذا المنزل جزءاً من أحلى وأجمل لحظات حياتينا ؟ .. كيف يمكننا أن ننسى كل هذا ، ونتطلع إلى أنفسنا وكأننا ننظر إلى شخصين غريبين ، لا يمتان لنا بأدنى صلة ؟

صمت برهة، ثم دفع ذقنها بأصابعه ، ليدير وجهها إليه ، وهو يقول فى رجاء :

— أيمكن أن ننسى حبنا يا (وفاء) ؟

ترقرقت الدموع فى عينيها ، وهى تتطلع إليه فى حيرة ، مغمغمة :

— (عصام) .. ماذا تريد منى ؟

تسللت أصابعه ؛ لتلتقى بأصابعها ، وهو يجيب :

— لا أريدك أن تصبحى قاسية على حبنا إلى هذا الحد .

تحشرج صوتها ، وجاهدت لمنع دموعها من الانهمار ، وهى تقول :

— أأنا التى قسوت عليه ؟

وعلى الرغم من أنه قد أدرك مغزى سؤالها على الفور ، إلا أنه تظاهر بعدم الفهم ، وهو يقول :

— ولكننى لم أتوقف عن حبك لحظة واحدة .

غمغمت ، وكأنها تستخف بعبارته ، وهى تسحب يدها بعيداً :

— أهذا ما قلته لها أيضاً ؟

عاوده اضطرابه وارتباكه ، وهو يغمغم :

— هى ؟ .. مَنْ تقصدين ؟

حدجته بنظرة اتهام صامتة ، ثم نهضت من مقعدها ، قائلة :

- معذرة .. إنه موعد دواء أبى ، ولا بد من أن أقدمه له بنفسى .

ظل مسمّراً فى مقعده بعد انصرافها ، وتملكه شعور من يُضبَط متلبّساً بارتكاب جريمة نكراء ..

إذن فهى تعلم كل شىء .. تعلم حقيقة حبه لـ (هيام) ، ولقاءاته بها .. الكل يعرف إذن ، ومن الغباء أن يتصور أنهم يجهلون ، فلا ريب أن عيونهما تفضح حبهما ، وكذلك لقاءاتهما المستمرة ، وأحاديثهما الهامسة ..

ولكن لماذا يشعر بالخجل ؟ ..

إنه هو الذى يحرض (هيام) دوماً على كشف السر ، ويعاتبها على مخاوفها من مواجهة الآخرين ، فلماذا أصابه كل ذلك الخجل والارتباك ، حينما أدرك أن (وفاء) تعرف السر ؟

ألأنه شعر الآن فقط ، أنه قد أجرم فى حق حبه لـ (وفاء) ، بعلاقته بـ (هيام) ؟

ألأن (وفاء) صارحته بمعرفتها بعلاقته بـ (هيام) ، فى نفس اللحظة التى استسلم فيها لحبها ، فوضعته فى صورة الشخص المنافق المتلون الكاذب ، الذى يتلاعب بكل القلوب ، دون أن يخلص فى حبه لأحد ؟ ..

أزعجه هذا الاحتمال الأخير ، وجعله يتساءل : أهو كذلك حقّاً ؟!

هز رأسه نفياً فى قوة ، وهو يقول :

- كلاَّ .. كلاَّ .. مستحيل .

وعاد ضميره يصرخ .

- ولم لا ؟ .. أمن الممكن أن يحب القلب اثنين فى آن واحد ؟ .. لماذا حاولت إذن أن تبث (وفاء) حبك ، مادمت مخلصاً لـ (هيام) ؟ .. كيف أمكنك أن تكون مخلصاً معهما معاً ؟..

وضع يده على جبينه ، وردّد فى ألم :

- ولكننى لست من ذلك الطراز المخادع ..

لا يمكننى أن أكون بكل هذا السوء ، الذى تظنه بى (وفاء) ، والذى أتصوره فى نفسى الآن ، فأنا أحب كلتيهما فى صدق وإخلاص ، وأشعر أننى لا أقوى على فراق (هيام) ، وأن شيئاً قويًّا يشدنى إلى (وفاء) .

انتفض جسده ، حينما شعر بيد توضع على كتفه ، وسمع من خلفه صوتاً يقول :

– (عصام) !! .. ماذا بك ؟

التفت إليها فى لهفة ، كطفل تائه وجد أمه ، وهتف :

– (هيام) ! .. أين كنت ؟

أجابته فى قلق :

– كنت أبتاع بعض اللوازم .. قل لى : لِمَ تبدو تعساً هكذا ؟

تعلق بيدها ، وكأنما يخشى أن يفقدها ، وراحت هى تتطلع حولها فى ارتباك ، وهو يهتف :

– إننى أحتاج إليك .. فى أشد الحاجة إليك .

غمغمت فى ارتياع :

– حبيبى .. ماذا بك ؟ .. إننى لم أرك أبداً على هذا النحو .

ضغط يدها مغمغماً فى توسل :

– سأنتظرك حيث نلتقى ، بعد ساعة واحدة .. إننى أحتاج إليك .

حاولت أن تشرح له صعوبة مغادرتها المنزل مرة أخرى ، إلا أنه رجاها أن تحاول ، فلم تملك سوى الاستسلام ، مغمغمة :

– حسناً .. سألحق بك هناك .

أدهشها أن قبَّل يدها فى حرارة لم تعتدها ، وانصرف فى سرعة ..

وفى أعماق قلبها تصاعدت صيحة ..

صيحة قلق وخوف ..

* * *

٩ ـ الحلم الجميل ..

لم يكد يراها قادمة نحوه، حتى اندفع إليها ، وألقى رأسه على كتفها ، غير عابئ برؤية أحد لهما ، وشعر بطمأنينة وهو يريح رأسه على كتفها ، مثلما كان يفعل مع أمه ، التى كان يهرع إليها ، كلما استبد به الخوف أو القلق ..

نعم .. إنها تذكّره بأمه .. بحنانها وعواطفها المتدفقة ، فلا يشعر بالاطمئنان إلا وهو إلى جوارها ..

وأحاطته (هيام) بنظراتها ، وهى تقول فى حنان وجزع :

ـ ماذا بك يا (عصام) ؟ .. لِمَ كل هذا الحزن والاضطراب فى عينيك ؟

تأملها فى صمت ، وغمغم فى رجاء :

ـ (هيام) .. أرجوك .. يجب أن نتزوج فى أسرع وقت .

نطق الجملة فى لهجة غريق يطلب طوق النجاة ، وشعرت بأنه ينبغى عليها أن تهدئ من روعه ، دون

أن تفكر فى أى اعتبار آخر ، فقالت دون تفكير :

ـ فلنتزوج يا حبيبى .. سأفعل أى شىء تطلبه ، ولكن لاتدعنى أراك هكذا .

قبّل يدها فى حرارة ، وهو يقول :

ـ نعم .. سنتزوج ، ولن يفرق بيننا شىء .. أى شىء .

قبّلت جبهته، وهى تستشعر قلقاً خفيّا،على الرغم من كل الإصرار واللهفة فى صوت (عصام) ، وعلى الرغم من أن مطلبه هو أعظم أمنية ترجوها المرأة من رجل تحبه ، إلا أن حاستها أنبأتها بأنه وراء هذه اللهفة، وهذا الإصرار والرجاء ، أمر تجهله ، ويشعر معه (عصام) بما يهدد حبهما ، فارتجفت لهذا الخاطر ، وشعرت أنها لن تسمح لأى شىء بتهديد حبهما ، حتى ولو اضطرت فى سبيل ذلك إلى محاربة نفسها، والدخول فى مواجهة جديدة مع عقدها ومخاوفها ..

أما (عصام) ، فقد وجد فى هذا القرار الحاسم ، والإصرار عليه ، وسيلة للخلاص من التذبذب والحيرة

التى تمزق نفسه بين عاطفتين ، وانتزاعاً لشعوره بالذنب ، كلما خفق قلبه لـ (وفاء) ، فى فلك واحد مع خفقاته لـ (هيام) ، وإنهاء للصراع تماماً ..

وقالت (هيام)، وهى تحاول النفاذ إلى أعماق نفسه :

– هل فكرت جيداً ؟ أمتأكد أنت من أنك تريد ذلك حقاً ؟

أجابها ، وهو يضغط حروف كلماته :

– نعم ، وأيقنت من أننا قد أخطأنا ، حينما جعلنا حبنا ينتظر لحظة تتويجه كل هذا الوقت .

ظل القلق يملأ ملامحها ، ولكنه ضغط على كفها فى حنان وحب ، مغمغماً :

– دعينى أشعر بموافقتك من القلب .

ابتسمت ، قائلة :

– منذ عرفتك ، وأنا لا أملك سوى الموافقة على طول الخط .. فقط لى مطلب واحد .

– ما هو ؟

– ألا نخبرهم مسبقاً برغبتنا فى الزواج ؟

– أسنعود إلى هذا مرة أخرى ؟

– أرجوك يا (عصام) .. إننى أطلب منك هذا لينجح زواجنا ، فلست قوية كما تتصور ، وما زلت أخشى أن تضعفنى معارضتهم ، أو نظرات الاتهام فى عيونهم ، لو أعلناهم برغبتنا فى الزواج .. فلنضعهم ولنضع أنفسنا أمام الأمر الواقع .

– وكيف يتحقق ذلك ؟

– اسبقنى إلى (القاهرة) ، وسأعد نفسى للحاق بك بعد أسبوع واحد ، حيث نتزوج ، ونعود إليهم زوجين .

– ألن يغضب ذلك خالك ؟

– ربما ، ولكن ذلك يهون أمام خوفى من معارضته للزواج ، وسأترك له رسالة قبل سفرى ، أشرح له فيها كل شىء .

– ليست هذه هى الصورة ، التى تصورتها لزواجنا ، فقد كنت أحلم بعرس تتحدث عنه

(الفيوم) كلها ، وبثوب زفاف لك ، تحسدك عليه الأخريات .

ـ لست صغيرة تقام لها ليلة عرس ، وترتدى ثوب زفاف ، فأنا مطلقة ، أكبرك بخمسة عشر عاماً ، وما دام حبنا يخالف المنطق والتقاليد ، فليكن زواجنا كذلك .

ربَّت على وجنتها ، مغمغماً :

ـ تلك المرأة ، التى تتحدثين عنها ، أجمل فى نظرى من عذارى الدنيا كلها ، وليتك تقنعين بأن الحب لا يعترف بمنطق أو تقاليد .

ضحكت (هيام) ، قائلة :

ـ لذلك سأتزوجك .. أليس هذا هو المهم ؟

بدا الارتياح على وجهه ، وهو يقول :

ـ بلى .. كم أتوق إلى يوم تشاركيننى فيه حياتى ، كما شاركتنى قلبى !

أسبلت جفنيها ، وشاركته أحلامه ، وهى تغمغم :

ـ أنا أيضاً أتوق لذلك اليوم يا (عصام) ، ولم يعد يعنينى سوى تحقيقه .

ـ أحبك يا (هيام) ، وأريد حبك وثقتك .

ـ أنا أيضاً أحبك أكثر مما تتصور يا (عصام) ، وأثق فيك كما أثق فى نفسى . وقد كنت قبل حبك لا أثق حتى فى نفسى .. أحبك .. أحبك ..

* * *

سافر (عصام) إلى (القاهرة) ، وانتظر لحاق (هيام) به ، ليعقدا قرانهما ، وانتهز فرصة وجوده فى (القاهرة) ؛ لينهى بعض الإجراءات الخاصة بالعقارات ، التى آلت إليه من جده ، ولكن انهماكه بتلك الأعمال لم يمنعه من التفكير فى حياته المقبلة مع (هيام) ، وشعر بسعادة وارتياح ؛ لحسمه الأمر على هذا النحو ، فمنذ الآن لا ينبغى عليه أن يفكر فى أية مخلوقة أخرى عدا (هيام) ، أو أن تزاحم حبها فى قلبه أية عاطفة أخرى ، فـ (هيام) هى قدره .. قدره الذى اختاره بنفسه ، اختياراً قائماً على الحب والمشاركة

الوجدانية ، وشعر فى اليومين الأولين ، اللذين قضاهما فى (القاهرة) ، أن حبه لـ (هيام) يزداد تأججاً وقوة، أو ربما أراد إقناع نفسه بذلك، بعد اتفاقهما على الزواج، وفى لحظات قليلة ، كان طيف (وفاء) يمر أمام عينيه، فكان يحاول إبعاده ، قائلا لنفسه :

– إنه طيف من الماضى ، وحب أصبح ذكرى، أما الحاضر والمستقبل ، فهما لـ (هيام) .. (هيام) وحدها ..

أما (هيام) ، فقد بدت فى أحدث حالاتها ، ولقد استردت ثقتها بنفسها ، واستعادت إحساسها بأنوثتها ، وبحقها فى الزهو بنفسها وجمالها ، والسعادة بكونها أنثى محبوبة ، يتمناها شاب لنفسه زوجة ، وتحبه هى أيضاً ، وتستمد سعادتها من سعادته ، وبدت وكأنما نفضت عن نفسها كل المخاوف ، وصارت مستعدة للتحديات.

ولقد أصبحت أكثر اهتماماً بثيابها وزينتها ،وعادت تقف أمام مرآتها بالساعات ، تنتقى الأثواب التى ستحملها معها ، عند سفرها إلى (عصام) ، وهى

تتساءل أيها سيروق له ، وقد تناست عمرها تماماً ، وبدت وكأن الحب قد أعادها إلى العشرينات ، وراحت تردد :

– آه يا (عصام) .. ليلتان فقط منذ افترقنا ، وأشعر أنك قد أوحشتنى كثيراً .. ما أقسى الساعات وأطولها ، حينما تكون بعيداً عنى .. كم كنت حمقاء ، وأنا أبعدك عنى .. أية حياة تلك ، التى كنت سأحياها دون حبك ؟ بعد أقل من أسبوع سأصبح زوجتك ..

فليغفر لى القدر كل مخاوفى السابقة ..

وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخلت (وفاء) ، والتفتت إليها (هيام) ، والتقى الوجهان ، وكان وجه (هيام) يشع بالسعادة والجمال ، أما وجه (وفاء) ، فكان يحمل إلى جوار جمالها شحوباً ..

شحوب يأس ومرارة ..

* * *

١٠ ـ اغفرى لى ..

مضت لحظات من الصمت ، ثم بدأت (وفاء) ، الحديث فى وهن ومرارة ، قائلة :

ـ معذرة .. لم أكن أعلم أنك هنا .. لقد نسيت أحد كتبى ، وجئت للبحث عنه ، و ..

قاطعتها (هيام) :

ـ ولماذا الرسميات يا (وفاء) ؟ .. إنه منزلك ، ويمكنك دخول كل غرفه ، دون استئذان .

لم تجبها (وفاء) ، بل أخذت تبحث عن كتابها فى هدوء ، وتابعتها (هيام) ببصرها بعض الوقت ، ثم شعرت بضرورة التحدث إليها ، فسألتها :

ـ ما رأيك فى ثوبى الجديد ؟

ألقت عليها (وفاء) نظرة عابرة ، ثم عادت تشيح بوجهها ، وهى تغمغم :

ـ إنه جميل .

اقتربت منها (هيام) ، وهى تقول :

ـ (وفاء) .. لم تعاملينى بهذا الفتور ؟ .. أأخطأت فى حقك بشىء ما ؟

حدجتها (وفاء) بنظرة اتهام ، شبيهة بتلك التى رآها (عصام) فى عينيها من قبل ، وصمتت برهة ، قبل أن تقول :

ـ أيخامرك هذا الشعور ؟

غمغمت (هيام) :

لست أظن أننى قـــد أخطأت فى حقك ، فأنت تعلمين كم أحبك ، وكيف أعتبرك بمثابة أخت صغرى ، أشعر بمسئوليتى عنها .

قالت (وفاء) فى صوت يحمل رنة تهكمية مريرة :

ـ أظن أنه قد آن الأوان ، لترفعى عن كاهلك عبء المسئولية ، فلست أحتاج إلى الحب والاهتمام من أى مخلوق .

وأسرعت تتناول كتابها ، وتهمّ بمغادرة الحجرة ، ولكن (هيام) أمسكت بذراعها تستوقفها ، وهى تسألها فى حيرة :

— (وفاء) .. اصدقيني القول .. أما زلت تحتفظين بذلك الحب القديم لـ (عصام) ؟

تطلعت (وفاء) إلى عينيها بمزيج من الدهشة والحزن ، وهى تقول :

— لماذا تطرحين هذا السؤال ؟

هيـام :

— أود أن أعرف و ..

قاطعتها (وفاء) بلهجة جافة :

— اطمئنى .. لقد كان حبًّا صبيانيًّا ، ولم يعد له وجود الآن .

ارتسم الارتياح على وجه (هيام) ، ثم لم تلبث كلمة (اطمئنى) أن قفزت إلى ذهنها ، فأورثتها القلق ، وجعلتها تتناول يد (وفاء) ، قائلة :

— (وفاء) .. تعالى نجلس معاً .. أشعر بحاجتى للتحدث إليك .

غمغمت (وفاء) فى جفاء :

— إننى مشغولة الآن .

هيـام :

— لن أعطلك كثيراً ، فقط أشعر بحاجتى إلى أن أبوح لك بسر يتعلق بى ، وبصديقك (عصام) .

بدا الاهتمام على وجه (وفاء) الشاحب ، وغلبها فضولها ، فجلست قبالتها ، على حين أسبلت (هيام) جفنيها فى سعادة ، وهى تقول :

— آه يا (وفاء) ، لو تعلمين كم أشعر بالسعادة .. لقد كان هناك حلم جميل يراودنى منذ زمن ، وها هو ذا فى طريقه إلى أن يصبح حقيقة .. حقيقة رائعة ، وما أجمل أن تتحول أحلامنا الجميلة إلى حقائق ، ولكن ينبغى أن يبقى ماسأخبرك به سرًّا بيننا ، إلى أن ينتهى كل شىء وفقاً لتخطيطنا ، فقد كان من المفروض ألا يعلم أحد بما سأخبرك به ، ولكن سعادتى أقوى من أن أكتمها عنك ، كما أننى أثق بك ، وأعلم أنك ستحتفظين بالسر طىّ الكتمان ، حتى نفاجئ به الجميع فلقد اتفقنا أنا و (عصام) على الزواج .. سألحق به فى نهاية الأسبوع إلى (القاهرة) ، حيث نعقد قراننا

هناك ، ونعود إلى (الفيوم) زوجين ، ولقد اتفقنا على ذلك ، حتى لا نجشم أنفسنا مشقة رفض الآخرين ، ومحاولات إقناعهم ، فنحن نحب بعضنا البعض حبًّا جمًّا ، لا يمكنك تصوره .

لم تلحظ (هيام) ، وهى تسترسل فى حديثها ، كل ذلك الألم ، الذى ارتسم فى ملامح (وفاء) ، حينما شعرت أن آخر خيوط الأمل تفلت من بين أصابعها ، وأن (عصام) قد صار ملكاً خالصاً لـ (هيام) ، وأنها قد فقدته إلى الأبد ، وانتابها شعور قوى بالتعاسة ، وظلم الحياة والقدر لها ..

ولولا أن السعادة تلهى المرء عن أحزان الآخرين ، للاحظت (هيام) من فرط الحزن والألم والمرارة فى عين ووجه (وفاء) ، التى بدا حديث (هيام) كخناجر تغوص فى قلبها ، حتى أنهت تلك الأخيرة حديثها ، قائلة :

– ما رأيك فى هذه المفاجأة ؟

ترقرقت الدموع من عينى (وفاء) ، وهى تقول فى وهن وخفوت :

– ألف مبارك .. أتمنى لكما التوفيق .

واندفعت تغادر الحجرة ، قبل أن تلمح (هيام) دموعها ، فجمدت هذه الأخيرة فى مكانها ، وتلاشت فرحتها ، وأدركت لأول مرة وقع المفاجأة على ابنة خالها ، وغمغمت فى ألم :

– إذن فالحب القديم لم ينته بعد .. ما أغبانى ! .. كيف لم ألحظ ذلك ؟ .. كيف لم أنتبه إلى ما طرأ عليها فى الآونة الأخيرة .. لقد ذبلت وشحبت ، وكأنها لاحظت كل شىء منذ البداية .. كانت تعرف أن (عصام) يحبنى ، وأننى أحبه .. يا للقسوة !! .. لقد تعذبت المسكينة كثيراً ، بعد أن عادت محملة بأحلام حب قديم ، وآمال فى إيقاظ ذكريات الصبا السعيدة ، ولكننا حطمنا أحلامها وآمالها بكل القسوة ، وألهتنا عواطفنا وأنانيتنا عن التفكير – ولو لحظة – فى هذه

المسكينة ، التى ظلت ترقب تحول مشاعر حبيبها عنها فى صمت وشقاء .

وأفسد عذاب الضمير فرحة (هيام) ، التى كانت تملأ جوارحها منذ لحظات ، فارتمت على فراشها ، وبكت وهى تضرب وسادتها بقبضتيها ، هاتفة :

— لم أكن أريد هـذا .. لم أكن أرغب فى أن يتعذب أى مخلوق بسببى .. لا أريد أن أبنى سعادتى على شقاء الآخرين وآلامهم ، وخاصة أنت يا (وفاء) .. إنك وخالى أحب الناس إلى قلبى بعد (عصام) .. رحماك ربى !! لقد بدأت أولى عذابات حبى .

ولكن أنانية الحب عادت تستيقظ داخلها ، وهى تستطرد :

— لا .. لن أسمح لأى شىء بإفساد سعادتى .. لا شىء سيثقل على ضميرى ، فليس ذنبى أنه لم يعد يحتفظ لها بذلك الحب الصبيانى القديم .. ليس ذنبى أنه قد أحبنى أنا ، واختارنى أنا زوجة له .. إننى لم أحاول أن آخذه منها ؛ لأنه لم يكن لها منذ البداية .. كان لى ..

لى وحدى .. ومهما أحبته (وفاء) ، فلن تحبه مثلما أحبه أنا .. إنه يجرى فى عروق ، ويحيا فى أنفاسى .. إنه من حقى .. من حقى وحدى ، فأنا وهو شىء واحد ، ولن تحبه مخلوقة أخرى مثلما أحببته .

وأسندت رأسها إلى الجدار ، مردفة :

— ليتك تقدرين مشاعرى يا (وفاء) .. إنك ستنسين مع الوقت ، وستجدين فى المستقبل من يعوضك حبك ، فأنت شابة ، والمستقبل أمامك ممتد ، أما أنا ففى خريف العمر ، أضعت عمرى فى أكاذيب وشقاء وحرمان ، وأصبح من حقى أن أنعم ببعض السعادة ، قبل أن تملأ التجاعيد وجهى .. سامحينى يا (وفاء) .. أرجوك .. سامحينى .. سامحينى ..

وأجهشت ببكاء حار ..

* * *

١١ ـ التضحية الكبرى ..

عادت (هيام) من الخارج ، لتجد خالها فى ردهة الفيلا ، مع شخص آخر ، فاقتربت منهما فى تساؤل ، وقدّم إليها خالها الشخص الآخر ، قائلا :

ـ الدكتور (صلاح) .. صديق وزميل الدكتور (رفيق) .. لقد أرسله لفحص حالة (وفاء) .

صافحها (صلاح) سريعاً ، وهو يقول :

ـ تشرّفنا يا سيّدتى .

ثم التفت إلى خالها ، قائلاً فى جدّية :

ـ كما أخبرتك من قبل .. ابنتك تحتاج إلى عناية فائقة ، ومراقبة دقيقة ، فلديها الرغبة فى التخلص من حياتها .

هتف الأب فى جزع :

ـ أتعنى أنها ستحاول الانتحار ؟

ـ ربما ، وقد لا يتخذ ذلك مظهراً عنيفاً ، فمجرّد استمرار حالة الحزن ، وإضرابها عن الطعام والشراب قد يؤديان إلى النتيجة نفسها .

ـ ربّاه !! لن أحتمل إصابتها بأدنى مكروه .

ـ سأبذل أقصى ما بوسعى ، ولكن هل تعلم شيئاً عن سبب تدهور حالتها النفسية ؟.. من الواضح أنها قد تعرضت إلى صدمة شديدة .

حدَجَ الخال (هيام) بنظرة طويلة، ثم هزّ رأسه، قائلا :

ـ الله وحده يعلم يا دكتور .

امتلأت نفس (هيام) بالرعب والفزع ، وتصوّرت نفسها القاتلة ، المسئولة عما أصاب (وفاء) ، على حين قال الطبيب :

ـ ينبغى أن نجلس معاً إذن ، ونناقش كل الاحتمالات ، وقد يستدعى الأمر نقلها إلى مستشفى خاص للأمراض النفسية ، المهم أن نوقف الآن تدهور حالتها ، وسأرسل ممرضة وبعض زجاجات(الجلوكوز).

شعرت (هيام) بفداحة جرمها فى حق الفتاة ، ولم تعد قادرة على احتمال عذاب ضميرها ، الذى يصرخ منذ امتنعت (وفاء) عن الطعام ، وتدهورت حالتها ،

وهالها ما ألحقته بأحب اثنين إلى قلبها .. خالها و (وفاء) فأسرعت تصعد إلى حجرة (وفاء) ، ولم تكد تنيرها حتى فوجئت بـ (وفاء) تصرخ :

— أطفئى الأنوار .

أطاعت (هيام) ، واقتربت من المقعد الذى تجلس عليه (وفاء) ، وجثت إلى جواره على ركبتيها ، وأمسكت بمسنده ، مغمغمة :

— (وفاء) .. أما زلت ترفضين التحدث معى ؟. لِمَ لا تقولين أى شىء ؟ .. قولى إنك تكرهيننى ، وتحقدين علىّ ، ولكن لا تواصلى صمتك هكذا ، فمازلت ابنة عمتك ، وأختك الكبرى ، وأمك الثانية التى تحبك وتتألم لرؤيتك هكذا .

ظلّت عينا (وفاء) جامدتين ، وهى تتطلع أمامها فى شرود حزين ، فأضافت (هيام) فى أسف :

— (وفاء) .. حينما أحببت (عصام) ، لم أكن أعلم أنك مازلت تحبينه ، فقد تصوّرت أن حب صبا كما صار مجرّد صداقة .. ولو علمت ما سمحت لحبه

بالترعرع فى قلبى أبداً .. إننى أشعر بذنب عظيم تجاهك ولكن صدقينى ، لو أن الأمر بيدى الآن لتخليت لك عنه ، اطلبى منى الانتحار ، أو اقتلينى بنفسك ، ولكن لا تطالبينى بالتخلى عنه ، فأنت لا تعلمين كم أحبه ، وكيف يتغلغل حبه فى خلاياى .. ارحمينى يا (وفاء) ، وارأفى بحالى ، وتوقفى عن تعذيبى بعذابك ، فلم أعد أقوى على احتمال هذا .

مدّت أناملها لتمس وجنتها ، ولكن (وفاء) تراجعت فى حِدّة ، وجسدها يرتجف ، فخفضت (هيام) وجهها فى انكسار ، وهى تقول :

— إذن فأنت ترفضين أن تسامحينى .

فجأة أضيئت الحجرة مرة أخرى ، ودخل الخال بعينين يطل منهما اليأس ، وراح يراقب ابنته فى حزن وألم ومرارة ، واتسعت عينا (هيام) فى فزع ، وهى تحدّق فى وجه (وفاء) ، وقد هالها ما رأته عليه من شحوب وحزن وذبول ، ووجدت نفسها تنحنى على يديها تقبّلهما ، وهى تبكى فى حرارة ، مردّدة :

ـ (وفاء) .. (وفاء) .

شعرت بدموع الفتاة تسقط على وجهها ، وجسدها يرتجف فى قوة ، ثم فوجئت بها تصرخ فى هستيرية :

ـ دعونى وحدى .. دعونى وحدى .

قال الخال فى ألم :

ـ اهدئى يابنيتى .. سنفعل .. سنتركك وحدك .. فقط اهدئى .

وانحنى يعاون (هيام) ، التى صارت أشبه بتمثال فاقد الحياة ، على النهوض ، وغادر الحجرة ، بعد أن أطفأ الأنوار ، فهتفت (هيام) فى استعطاف :

ـ خالى .. يجب أن نفعل شيئاً .. يجب أن نفعل شيئاً من أجلها .

تطلع إليها بنظرة لوم وعتاب ، وهو يقول :

ـ أنت وحدك تعلمين ما الذى ينبغى عمله .

تراجعت فى ذعر ، ثم ألصقت رأسها بالحائط ، وهى تقول فى حزن ومرارة :

ـ إذن فأنت أيضاً تطالبنى بالتخلى عن (عصام) .

اقترب منها ، قائلا :

ـ لست أطالبك بشىء ، ولست أحاول أن أفرض عليك شيئاً ، ولكننى مستعد لأن أجثو على ركبتى أمامك ، لترحمى عذاب ابنتى الوحيدة .. لقد عاملتك دوماً كابنة لى ، وأعطيتك نفس الحب والحنان ولم أقصّر فى حقك شيئاً ، ولست أطالبك برد الثمن ، فالآباء لا يطلبون مقابل حنانهم على أبنائهم ، ومازلت أحبك ، وأعتبرك فى منزلة (وفاء) تماماً ، ولكننى أتألم ، لأننى أعلم علة (وفاء) ، وأعرف أنك وحدك يمكنك إنقاذها ، لو تصرفت كأخت كبرى ، تضحى من أجل أختها الصغرى ، وأعلم أنها ليست بالتضحية اليسيرة ، ولن أحدثك عن فارق السن بينك وبين (عصام) ، والذى سيجعلك تذبلين ، فى الوقت الذى تزدهر فيه زهرة رجولته وشبابه ، والذى سيحيل حبه لك يوماً إلى نوع من الشفقة .. إنه الواقع الذى تفرين منه يا بنيتى .. إننى لم أقل هذا منذ البداية ، على الرغم من أننى قد لاحظت حبكما منذ منبته .. أتدرين لماذا ؟ .

لأن خبرتى فى الحياة علمتنى أننى مهما قلت ، ومهما شرحت وحذرت ، فلن تستجيبى لى أبداً ؛ لأن الحب دائماً أقوى من كل منطق ، ويرفض كل التحذيرات ، مهما كان صاحبه واثقاً من عواقبه .. ولأننى لم أقو على مواجهتك أيضاً ، ولكن ليس من العدل الآن أن نتجاهل الحقيقة ، وفى أحد أركانها فتاة تتعذب ، وتكاد تلقى حتفها ، بسبب علاقة غير منطقية .

غمغمت (هيام) ، وكأنما تتمسك بآخر خيوط الدفاع عن حبها :

ـ ولكن ابتعادى لن يحوّل قلب (عصام) إليها ، فهو يحبنى أنا ، وليس ذنبى أن قلبه لم يعد يحبها .

هزّ رأسه ، قائلا :

ـ أخطأت فى ظنك يا بنيتى ، فـ (عصام) لم يتوقف أبداً عن حبه لـ (وفاء) ، ولكن ظهورك فى حياته أربك عواطفه ومشاعره ، فأصبح غير قادر على أن يحكّم قلبه بين عاطفتين .

غمغمت فى تخاذل :

ـ أتعنى أننى لو ابتعدت عنه ، فإنه ..

قاطعها مكملا :

ـ فإن حبهما سيأخذ مساره الطبيعى .

انفجرت باكية ، وألقت نفسها بين ذراعى خالها ، هاتفة :

ـ هذا يفوق احتمالى .

مسح بيده على شعرها ، مغمغماً :

ـ أعلم يا بنيتى أنه خيار صعب وقاس ، ولكن تذكرى أن عذاب ضميرك سيكون أكثر صعوبة وقسوة ، لو حطمت قلب هذه الفتاة المسكينة .

غمغمت ، وهى تنتحب :

ـ سأفعل كل ما تريده يا خالى .. سأضحى بحبى وسعادتى ، مادام هذا سينقذ (وفاء) ، ويحقق لها ، ولـ (عصام) ما يصبوان إليه من سعادة .

شعر خالها بقلبه يتمزق ، وهو يسألها :

ـ أتعديننى بذلك يا (هيام) ؟

دفنت رأسها فى صدره ، وازداد نحيبها ، وهى تجيب :

– نعم يا خالى .. أعدك .

عاد يسألها فى قلق :

– وكيف ستتصرفين الآن يا بنيتى ؟

مسحت دموعها ، وهى تقول :

– ينبغى أن نطلب من (عصام) العودة أولا ، من أجل (وفاء) .. أما أنا فلا تقلق بشأنى .. فسأدبر أمرى بنفسى .

حاول خالها أن يقول شيئاً ، ولكن شفقته نحوها غمرته ، فعجز عن النطق ، على حين أسرعت هى إلى حجرتها ، وأغلقتها خلفها ، وأطلقت العنان لدموعها ، وهى تبكى حبيب قلبها ..

حبيبه السابق ..

* * *

١٢ – وداعا يا حبيبى ..

توزعت مشاعر (عصام) ، خلال الأيام التى قضاها فى القاهرة ، ما بين اللهفة والملل .. اللهفة فى انتظار مقدم (هيام) ، وعقد قرانه عليها ، والملل من شعوره بالوحدة والاغتراب بعيداً عنها ، وأخذ يتعجل الأيام الباقية على لحاقها به ، كما وعدته ، دون أن يعلم شيئاً عن الأحداث الأخيرة ، التى جرت فى غيابه ..

وبينما كان يعبر بهو الفندق ، فى ذلك اليوم ، ناداه موظف الاستقبال ، فذهب إليه يسأله :

– هل من جديد ؟

أجابه الرجل فى احترام :

– نعم يا أستاذ (عصام) ، لقد وصلتك برقية منذ ساعتين .

أدهشه ذلك ، وتملكته الوساوس ، حتى لقد خشى أن يقرأ البرقية فور تسلمها ، وتركها حتى صعد إلى غرفته ، ثم أسرع يفضها ، وقرأ فيها :

– « (عصام) .. لن يمكننى الحضور إليك كما وعدتك .. عد سريعاً .. (وفاء) مريضة ، وهى فى أشد الحاجة لوجودك .. (هيام) » .

أصابه انزعاج شـديد ، وظـل جامداً فى مكانه لحظات ، لا يدرى السبب الحقيق لمـا أصـابه .. أهـو شعوره بأن القدر يتدخل ليحول بينه وبين الزواج من (هيام) ؟ .. أم هو قلقه لمـا جاء بالبرقية من مرض (وفاء) ؟! ..

وأخذ يردّد لنفسه :

– أيمكن أن تكون حالة (وفاء) بهذا السوء ؟ .. أيمكن أن أكون أنا السبب فى ذلك ؟ .. ولم لا ؟ .. إننى أعرف (وفاء) جيداً .. أعرفها منذ الطفولة .. إنها رقيقة حساسة ، تتألم لأتفه الأشياء .. إنها مثالية أكثر مما ينبغى ، وهذا النوع من المثالية يصيب صاحبه دوماً بالآلام والعذاب .

وتهالك فوق مقعده ، وهو يردد :

– لن أسـامح نفسى أبداً ، لو أننى السبب ..

فما زلت أحبها .. نعم .. أحبها من كل قلبى ، ولن أرضى لنفسى أبداً أن أكون السبب فى آلامها .. ليتها أدركت حقيقة مشاعرى حينما تحدثت إليها فى الحديقة.. ليتها بدلا من طردى من حياتها وتلك النظرة المعاتبة ، قد فتحت لى قلبها .. عندئذ ربما .. ربما ..

توقف عند تلك الكلمة الأخيرة ، ليسأل نفسه :

– ربما ماذا ؟ .. أكان من الممكن أن يجعلنى هذا أحيد عن مشاعرى تجاه (هيام) ؟

وأغمض عينيه مغمغماً :

– لاوقت الآن للحيرة وعقد المقارنات ، يجب أن أعود الآن إلى (الفيوم) ، لأكون إلى جوار (وفاء).. لن أتخلى عنها أبداً .. أبداً ..

* * *

استقبلت (هيام) الدكتور (رفيق) فى ردهـة الفيلا ، واستدعت خـالها لمقابلته ، وسأله الدكتـور (رفيق) فى اهتمام :

– كيف حالها الآن ؟

أجابه الأب ، والحزن يعتصره :

– إن حالتها تزداد سوءاً .

عاد الدكتور (رفيق) يستفسر قائلا :

– لِمَ لمْ توافق على اقتراح الدكتور (صلاح) بنقلها إلى المصحة فوراً ؟ .. إنه متخصص فى مثل هذه الحالات .

غمغم الأب فى شرود :

– إننا نعلق آمالنا على شخص ما ، ننتظر حضوره ، فقد يكون علاجها على يده .

أدرك الدكتور (رفيق) مغزى الكلمات ، فقال :

– أهى تحبه ؟

أومأ الأب برأسه إيجاباً ، فاستطرد الدكتور (رفيق) :

– هذا إذن هو سبب مرضها .. أرجو أن يكون ذلك الشخص نبيلا ، حتى لا يتخلى عنها .

ولمح (هيام) تهبط فى درجات السلم ، فأردف فى خفوت :

– فأقسى الآلام هى آلام الحب .

ثم نهض يصافح الأب ، قائلا :

– كنت أود أن أبقى معكم وقتاً أطول ، فى ظل هذه الظروف ، ولكن المستشفى والمرضى ..

قاطعه الأب مغمغماً :

– إننى أقدر ذلك ، وأشكر لك اهتمامك ، وإرسالك الدكتور (صلاح) .

– لا تقل هذا .. أنت تعلم مقدار صداقتنا .. وعلى أية حال ، سأتصل بكم فور وصولى إلى الإسكندرية ، وأرجو أن أسمع أنباء طيبة ، وسأحضر فى أقرب وقت للاطمئنان عليها بنفسى ، وسيبقى الدكتور (صلاح) إلى جوارها .

– شكراً يا (رفيق) .. شكراً لك .

اقتربت منهما (هيام) ، وقالت :

– سأوصل الدكتور (رفيق) إلى البوابة الخارجية .

غمغم الدكتور (رفيق) :

– لاداعى .. سوف ..

قاطعته هامسة :

– أريد التحدث معك .

* * *

قالت ، وهما يجتازان حديقة المنزل :

– ترى هل قدرت صراحتى معك يا دكتور (رفيق) ، حينما أخبرتك أننى لا أستطيع تلبية رغبتك فى الزواج منى ، على الرغم من احترامى الشديد لك ؟

أومأ برأسه إيجاباً ، وهو يقول :

– نعم ، فأنا أحترم الصراحة دوماً ، كما أننى من أنصار أن يقوم الزواج بين طرفين على أساس تكافؤ مشاعرهما ، ولم يكن ذنبك أنك لا تحملين نحوى نفس المشاعر التى أحملها أنا لك ، فهذا مما لا يملكه المرء .

وابتسم ، وهو يستطرد فى حزن :

– ربما لو لم أكن رجلا عمليًّا ، أنظر إلى الأمور دوماً بواقعية وتفاؤل ، لتحولت إلى مريض يائس ، مثل ابنة خالتك .

حملت لهجتها تقديرها ، وهى تقول :

– هذا يزيد من تقديرى واحترامى لك ، فأنا معجبة دوماً برجاحة عقلك ، وحسن تقديرك للأمور .

توقف الدكتور (رفيق) بغتة ، وتطلع إليها ، قائلا :

– (هيام) .. لست أظن أنك قد صحبتنى إلى الخارج للإشادة بى فحسب .. أنت تريدين التحدث معى عن أمر آخر .. أليس كذلك ؟

– هذا صحيح .. اسمع يا دكتور (رفيق) ، سأطلب منك شيئاً ، وأرجو ألا تسألنى السر وراء مطلبى ، سواء رفضته أو قبلته .. فى الوقت الحاضر على الأقل .

تطلع إليها فى حيرة ، مغمغماً :

– هيام .. إنك تقلقيننى ، ومع ذلك أعدك بأننى سأوافق على طلبك مسبقاً ، ولن أسألك عن سببه أبداً .

ترددت (هيام) لحظة ، ثم قالت :

– أريد أن أسافر معك إلى (الإسكندرية) ، وأعمل فى مستشفاك .

حدق فى وجهها بدهشة ، وهو يقول :

ــ وأى عمل ستعملينه هناك ؟

ــ أى عمل .. إننى أجيد التمريض بعض الشيء ، كما يمكننى القيام بأى عمل إدارى تطلبه .

زادت دهشته ، وهو يسألها :

ــ ولكن لماذا ؟ .. كيف ستتركين منزلك وخالك ، وابنة خالك ؟

ــ ألم تعدنى بألا تلقى أية أسئلة ؟

ــ أأنت واثقة من أنه قرار صحيح ؟

ــ تمام الثقة ، وأرجو أن تساعدنى على تحقيقه .

ــ حسناً .. لقد وعدتك ، ومادامت هذه رغبتك فسأحققها لك .

ــ أريد منك أن تعدنى بشيء آخر .

ــ ما هــو ؟

ــ ألاّ تخبر أحداً بسفرى أو مكانى .

ــ كيف ذلك ؟ .. أتريدين إخفاء الأمر عنهم ؟

ــ أرجوك يا دكتور (رفيق) .. لدىَّ أسبابى الخاصة .

ــ ولكن خالك ! .. إن ذلك سيورثه حزناً وهمًّا هو فى غنى عنهما ، فى ظل ظروفه الحالية .

ــ سيقدّر خالى ذلك ، بل ربما رحب به ، وعلى كل ، سأترك له رسالة ، أوضح له فيها كل شيء ، دون أن أطلعه على مكانى ، إلى أن يأتى الوقت المناسب .

ــ برغم عدم فهمى للأمر ، إلا أننى أعدك بهذا أيضاً ، وإن كنت أرجو أن تفسرى لى الأمور فيما بعد ، على الأقل لتخفى من حيرتى ، وإحساسى بالذنب تجاهك ، وتجاه خالك ، إزاء هذا التصرف .

ــ أشكرك يا دكتور .. أشكرك جداً .. متى تسافر إلى (الإسكندرية) ؟

ــ الليلة ، فى السابعة مساءً .

ــ ستجدنى فى انتظارك بالمحطة ، ومرة أخرى ، أكرر شكرى لك .

وصافحها (رفيق) ، وانصرف ، ولكن علامات التساؤل والحيرة لم تفارق وجهه وأعماقه أبداً ..

أبـــداً ..

* * *

هبطت (هيام) فى درجات السلم فى بطء ، وهى تحمل حقيبتها ، تمهيداً للرحيل ..

وفجأة رأته يعبر الردهة مهرولا ، ويلتقى بها على السلم ، ووقف كل منهما أمام الآخر جامداً برهة من الوقت ، وتشابكت نظراتهما ، وجاء لقاؤهما على عكس ما توقعـاه ، وخططا له ، وتمنت (هيـام) لو توقف الزمن بعض الشىء ، وطال لقاؤهما الصامت ، حتى ترتوى عينيها برؤيته ، إلا أنه حطم أمنيتها فى قسوة ، وهو يسألها فى لهفة :

— أين هى ؟

أجابته فى خفوت :

— فى حجرتها .. اصعد إليها .

تجاوزها فى لهفة ، وهو يسرع نحو حجرة (وفاء)،

وتابعته هى ببصرها فى ألم ، ثم أطرقت برأسها فى حزن واستسلام ..

ورأى الأب (عصام) يندفع إلى حجرة ابنتـه ، فتهللت أساريره ، واندفع نحـوه يصـافحه ، هاتفاً فى همس :

— (عصام) ؟! .. حمداً لله أنك جئت يا ولدى .. إن (وفاء) مريضة للغاية .

صافحه (عصام) فى شرود ، واتجه نحو فراش (وفاء)، فأشار الأب إلى الممرضة أن تتبعه إلى الخارج ، وأغلق الباب خلفه ، وترك (عصام) يجلس على طرف الفراش ، وقد مزقـه الألم لرؤية (وفاء) على هـذه الصورة ، فى شبه غيبوبة ، غائرة العينين ، تحيط بجفنيها هالات سوداء ، وقد شحب وجهها فى شدة ، فمـال نحوها يهمس :

— (وفاء) .. حبيبتى .. لن يرضيك أن تفعلى بى ذلك .. فأنا أحبك .. أحبك أكثر مما كنت أنا نفسى أتصور ، وليس أقسى على المحب من أن يرى حبيبته

تذوى وتحتضر أمامه ، دون أن يجد ما يفعله من أجلها ، والأكثر قسوة أن يشعر أنه سبب آلامها ..

قد لا تصدقين شيئاً من قولى ، ولست ألومك على ذلك ، وقد تظنين أننى مخادع ، لا قلب له ولا ضمير ، لأنه يبث عواطفه لاثنتين ، ويوزع مشاعره على قلبين ، ولكن هذا غير حقيقى ..

لست أنكر أننى قد أحببت (هيام) .. جاء وقت شعرت فيه بصدق هذا الحب فى قلبى ، ولكن النفس تجهل أحياناً حقيقة مشاعرها ، تماماً كما كنت أجهل مبلغ حبى لك ..

لقد قابلت(هيام) ، وأنا فى أسوإ حالاتى النفسية . كنت أشعر بالمسئولية والوحدة ، بعد وفاة أبوىَّ ، وكنت قد تجاوزت أزمة عاطفية ، مع إحدى الفتيات الأمريكيات ، وكنت أنت بعيدة ، فوجدت فى (هيام) الفهم والتقارب ، والأمومة التى حرمت منها ، فاندفعت بكل عواطفى إليها ، ووجدت فى مشاعرها الحارة ، وعواطفها المحرومة ما يعوضنى عما

أفتقده ، وعندما ظهرت أنت فى حياتى مرة أخرى ، أربكت مشاعرى وعواطفى ، ورأيت فيك حبى القديم ، الصادق النقى ، الذى لا تشوبه مشاعر افتقاد ابن لحنان الأم ، ولا تقيده أغلال متاعب نفسية .. ولكن إحساسى بالالتزام تجاه (هيام) ، التى أحبتنى بكل صدق وإخلاص ، وتفان ، وعدم قدرتى – لوقت طويل – على تفسير حقيقة مشاعرى نحوها ، وتجاهلك لحبى القديم .. كل هذا حال دون أن نضع الأمور فى نصابها الحقيقى ، ومنعنى من رؤية حبى لك ، والاعتراف به .

غمغمت فى وهن ، وهى مغمضة العينين :

– (عصام) .. لا تحاول أن تؤثر فىَّ ، بدافع العطف أو الشفقة ، وتأكد أننى حتى ولو فارقت الدنيا ، فلن أرحل عنها حاقدة عليك أو عليها .

بلَّل الدمع خدَّيه ، وهو يقبِّل يدها ، قائلا :

– صدقينى هذه المرة .. لقد تصورت فى وقت ما أننى أحبكما معاً ، ولكننى خلال الطريق من (القاهرة) إلى (الفيوم) ، تكشفت لى الحقيقة شيئاً

فشيئاً .. حقيقة أننى أبداً لم أحب سواك ، ولست أحمل مشاعراً لغيرك .

فتحت (وفاء) عينيها ، وتطلعت إليه لأول مرة ، منذ مجيئه ، وارتسم على شفتيها شبح ابتسامة ، ورفعت يديها الرقيقتين تتلمس وجهه فى رفق ، فتناولهما فى راحتيه ، وقبّلهما فى حب وحنان ، ثم همس :

— (وفاء) .. أتقبلين الزواج منى ؟

أومأت برأسها موافقة فى بطء ، وهى تحتفظ بعينيها مفتوحتين ، حتى لا يغيب عنهما ، وانتقلت قبلاته إلى جبينها ووجنتيها ، وشعر أخيراً أنه قد رسا على مرفأ الحب الوحيد فى حياته ، وأن (وفاء) قد استولت على قلبه ، لا ينازعها فيه أحد ..

وخلف الباب ، جففت (هيام) دموعها ، بعد أن سمعت ورأت نهاية حبها ، وضياع حلمها الجميل ، الذى شعرت دوماً بأنه أجمل من أن يستمر حقيقيًّا ، وبدأت تهبط فى درجات السلم ، وتجر خلفها أحزانها

الثقيلة ، وحبها الجريح ، وغادرت منزل خالها .. إلى الأبد ..

* * *

بعد شهرين من رحيل (هيام) ، وقف الأب خلف زجاج نافذة الڤيلا ، يراقب فى ابتهاج ابنته (وفاء) ، وقد عادت إلى إشراقها ونضارتها ، وهى تضحك فى سعادة ، مع زوجها وحبيبها (عصام) ، فى أثناء جلوسهما معاً فى الحديقة ، ولكن شيئاً ما كان يفسد بهجته ، ويضفى على وجهه ملامح الحزن والألم ، وهو يتذكر تلك الرسالة ، التى تركتها (هيام) قبل رحيلها ، والتى حرص على إخفائها عن الجميع ، حسبما أرادت ، ولكنه لا يستطيع كبح دموعه ، كلما تذكر كلماتها ، التى تقول :

— « خالى وأبى العزيز ..

هأنذا أفى بوعدى لك ، وأرحل بعيداً ، كيلا أصبح عقبة أمام قلبين متحابين ، ولكى تعود السعادة لترفرف على هذا البيت ، الذى عشت فيه أجمل سنوات

عمرى .. اطمئن ، فأنا فى خير حال ، وسأبذل قصارى جهدى ؛ لأنتصر على آلامى ، وأداوى جراح نفسى . لا تخبر أحداً بأمر رسالتى ، وسأعمل على لقائك يوماً ، فى الوقت المناسب .. مرة أخرى أريد منك أن تطمئن إلى أننى فى خير حال ، وثق أننى سأحيا ما بقى من عمرى على ذكرى حبكم ، الذى لا يفارق نفسى أبداً .. أنت و (وفاء) .. و (عصام) ..

ابنتك المخلصة

(هيام)

وعاد الأب يطوى أحزانه مع الخطاب ، وعاد يتطلع إلى الزوجين ، وقد استغرقتهما السعادة ، وابتسم ..

وابتسمت الدنيا ..

* * *

(تمت بحمد الله)

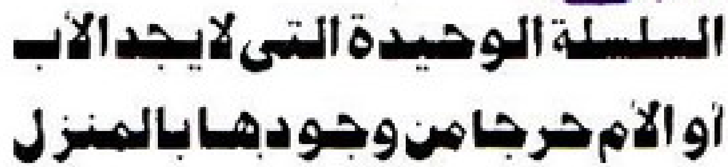
عاشت حياتها تخشى الارتباط ، بعد تجربتها المريرة ، ثم اقتحم هو حياتها وقلبها ، ودفعها إلى خوض التجربة مرة أخرى ، وعاد بعدها يضعها أمام أصعب اختيار .. إما أن تتمسك بأنانية الحب ، أو تهتف بقلب جريح : وداعاً يا حبيبى .

الزهرة القادمة

(٢٧)

(حبى المعذب)

أ. شريف شوقى





أ . شريف شوق

وداعا يا حبيبى

عاشت حياتها تخشى الارتباط ، بعد تجربتها المريرة ، ثم اقتحم هو حياتها وقلبها ، ودفعها إلى خوض التجربة مرة أخرى ، وعاد بعدها يضعها أمام أصعب اختيار .. إما أن تتمسك بأنانية الحب ، أو تهتف بقلب جريح : وداعًا يا حبيبى .



الثمن فى مصر
وما يعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم